TJFPS

IRAQI Academic Scientific Journals

العراقية المجلات الاكاديمية العلمية

Contents lists available at :
http://tjfps.tu.edu.iq/index.php/poltic

Tikrit Journal For Political Science

Fascism and how to eradicate it in Germany from the perspective of George Lukacs

Asst.Prof. Dr. Hussam Al-Din Ali Majeed *
Salahuddin University - College of Political Science

A r t i c l e i n f o.

Article history:
- Received 23 Sept. 2019
- Accepted 28 Oct. 2019
- Available online 22 Dec. 2019

Keywords:
- Fascism
- Germany
- State
- George Lukacs
- Political Thought

Abstract: During the period between the two world wars, and among the socialists who are not Marxists in particular, the topic of re-reading and reviewing Marx's writings intellectually and building intellectual and political lines against fascism and extremism in general and Nazi in particular emerged, so that the star of a group of thinkers in this regard, and perhaps most prominent among them George Lukacs and Georg Luck Cyrus, Karl Mannheim, Walter Benjamin, and others. In such an intellectual milieu, the angle of view of the fascist phenomenon varied in terms of it being a general phenomenon or a group of special cases. There are those who believe that the term fascism should be restricted to Mussolini's case only. That is, we should call the Nazi regime Hitler, and fascism a Mussolini system, and all similar movements have their own names, given that each of them is a phenomenon that is independent and separate from the other cases.

* **Corresponding Author:** Hussam Al-Din Ali Majeed**, E-Mail: ,Tel: , Affiliation**: Salahuddin University - College of Political Science

الفاشية وكيفية اجتثاثها في ألمانيا من منظور جورج لوكاش

أ.م.د . حسام الدين علي مجيد

جامعة صلاح الدين / كلية العلوم السياسية

معلومات البحث :

تواريخ البحث:

- الاستلام : 23/ ايلول /2019
- القبول : 28/ تشرين الاول/2019
- النشر المباشر : 22/كانون الاول/2019

الكلمات المفتاحية :

- الواقعية الجديدة
- الفوضى
- الدولة
- المنظمات الدولية
- الدراسات الدولية

الخلاصة : إبّان حقبة ما بين الحربَين العالميَتَين، وفي أوساط الاشتراكيين غير الماركسيين بخاصة، برز موضوع إعادة قراءة كتابات ماركس ومراجعتها فكرياً وبناء خطوط فكرية وسياسية مناهضة للفاشية والماركسية المتطرِّفة بعامة والنازية بخاصة، بحيث لَمَعَ نجم مجموعة من المفكرين في هذا الشأن ولعلَّ أبرزهم جورج لوكاش Georg Luckacs وكارل كورش وكارل مانهايم ووالتر بينيامين وآخرين . وفي مثل هذا الوسط الفكري، تفاوتت زاوية النظر الى ظاهرة الفاشية، من حيث كونها ظاهرة عامة أم هي مجموعة حالات خاصة، فهناك مَنْ أعتقد بضرورة تقييد مصطلح الفاشية على حالة موسوليني فقط. أي ينبغي أنْ نُطلِقَ على النازية نظام هتلر، وعلى الفاشية نظام موسوليني، وعلى كلِّ الحركات المماثلة أسماءها الخاصة، وذلك على اعتبار كلِّ واحدةٍ منها ظاهرة مستقلة بذاتها ومنفصلة عن الحالات الأُخرى.

المقدمة :

إبّان حقبة ما بين الحربَين العالميَتَين، وفي أوساط الاشتراكيين غير الماركسيين بخاصة، برز موضوع إعادة قراءة كتابات ماركس ومراجعتها فكرياً وبناء خطوط فكرية وسياسية مناهضة للفاشية والماركسية المتطرِّفة بعامة والنازية بخاصة، بحيث لَمَعَ نجم مجموعة من المفكرين في هذا الشأن ولعلَّ أبرزهم جورج لوكاش Georg Luckacs[1] وكارل كورش وكارل مانهايم ووالتر بينيامين وآخرين[2]. وفي مثل هذا الوسط

[1] مفكِّرٌ وسياسي هنغاري، ولِدَ في مدينة بودابست عام 1885 في ظل عائلة ميسورة وذات مكانة إجتماعية. وتدرّج في إرتقاء مراحل التعليم حتى حاز على شهادة الدكتوراه من جامعة بودابست عام 1906، وعمل فيها أُستاذا متخصصاً في علم الجمال وفلسفة الحضارة بين عامَي (1956–1945). إنتمى الى الحزب الشيوعي الهنغاري في العام 1918، وهو العام الذي إندلعت فيهِ الثورة الهنغارية، وعمل الشيوعيون على إسقاط الحكومة وتشكيل حكومة جديدة عام 1919 وشَغَلَ فيها لوكاش رئيسَ دائرة الثقافة والتعليم. ولكنَّ إنهيار الحكومة في العام 1919 أدّت به ليكون لاجئاً سياسياً في النمسا. وفي عام 1923 نشَر مجموعة دراساتهِ باللغة الألمانية في كتابهِ الموسوم "التاريخ والوعي الطبقي"، مما تسبّب بطردهِ من الحزب الشيوعي وهيئة تحرير مجلة "الشيوعية Kommunismus". وبعد العام 1933، لجأ لوكاش الى روسيا وعاش فيها بين عامَي (1944–1933). وقام إبَّان هذه الفترة بمراجعة كتابات ماركس من زاوية النقد الذاتي والمراجعة الفكرية. وفي العام 1956 إشتركَ في الثورة الهنغارية

الفكري، تفاوتت زاوية النظر الى ظاهرة الفاشية، من حيث كونها ظاهرة عامة أم هي مجموعة حالات خاصة، فهناك مَنْ أعتقد بضرورة تقييد مصطلح الفاشية على حالة موسوليني فقط. أي ينبغي أنْ نُطلِقَ على النازية نظام هتلر، وعلى الفاشية نظام موسوليني، وعلى كلِّ الحركات المماثلة أسماءها الخاصة، وذلك على اعتبار كلِّ واحدةٍ منها ظاهرة مستقلة بذاتها ومنفصلة عن الحالات الأُخرى. وفي المقابل، يرى اتجاه آخر أنَّ البُنية الفكرية وواقع حال هذه الحركات يكشف عن وحدة الموضوع والانسجام الفكري بين هذه الحركات السياسية. بمعنى أنَّ موسوليني وهتلر مجرد تطبيقات وأشكال مختلفة لِظاهرة سياسية واحدة وهي "الفاشية". فهذا التنوع الكبير في أشكال الفاشية دليلٌ على اتساع وعمومية الظاهرة، وهو ما يدعو أصلاً للتمسّك بهذا المصطلح. فالفاشية شأنها شأن الايديولوجيات الاخرى، مثل الشيوعية، من حيث كونها مصطلحاً عاماً يشتمل على تطبيقات متنوعة للغاية. كذلك لا نستبعد الليبرالية من هذا القياس. فهي تحوي بين جَنَباتها أشكالاً متباينة ما بين تقليدية وحديثة ونيوليبرالية. وتنبعُ **أهمية دراستنا** هذه من فكرة أنَّ الفاشية تجسيد للاعقلانية السياسية بعامة والتطرف العرقي وحتى الطائفي، فهي تتجاوز الحدود لِتشملَ دولاً عديدة وحركات سياسية متنوعة تسعى للإستيلاء على السلطة. إذ بالرغم من الظروف الخاصة التي جعلت ألمانيا "وطنَ اللاعقلانية المختار"، فإنَّ ذلك لا يُغيِّرُ شيئاً في واقع كون اللاعقلانية الفاشية ظاهرةٌ دولية، وأنَّها في شتّى الاماكن هاجمتْ الاشتراكية الماركسية والليبرالية على حدٍّ سواء. وهو ما يقودنا الى تحديد **اشكالية الدراسة** عبر مجموعة أسئلة متلازمة في سياق معالجتنا لأفكار جورج لوكاش: فهل الفاشية ظاهرة سياسية خاصة أم أنَّها ظاهرة عامة، وما هي البيئة الفكرية التي تساعد على توليدها؟ ولماذا تمكَّنت من الوصول للسلطة في ألمانيا وايطاليا بخاصة دون الكثير من الدول الأوروبية؟ وكيف تمكَّن الألمان من اجتثاث النازية وتجاوز ماضيهم؟ وهل هناك احتمالية لعودة الفاشية الى الحكم؟ وبُغية الاجابة عن هذه الأسئلة تأتي **فرضية البحث** لتُركِّز على أنَّ الفاشية ظاهرة عامة شملت معظم دول أوروبا وتَتطلَّبَ ولادتها بيئة فكرية وسياسية معينة،

المضادَّة للإتحاد السوفيتي، وعمل وزيراً للثقافة في حكومة إمري ناجي Imre Nagy والتي إنهارت بسبب التدخل العسكري السوفيتي، فتمَّ نفيهِ الى رومانيا ولكنهُ سرعان ما سُمِح لهُ بالعودة الى بودابست عام 1957، فعزَف عن النشاط السياسي وكرَّسَ نفسهُ للنشاط الأكاديمي والفلسفي حتى مماتهِ عام 1971. للمزيد من التفاصيل أنظر:

Neil McInn, “Georg Luckacs”, in, Donald M. Borchert (ed.), Encyclopedia of philosophy, Vol. 5, Thomson Gale, 2nd. Ed., Detroit, 2006, pp. 602-603. See also Robert Audi (ed.), The Cambridge dictionary of philosophy, Cambridge University Press, 2nd. ed., 1999, pp. 520-521. For more details see [2] Michael Kelly, “Philosophies of Marxism: Lenin, Lukacs, Gramsci and Althusser”, in, Richard Kearney (ed.), Routledge history of philosophy, Vol. VIII, Routledge, London, 2005, pp. 191-192.

غير أنَّ استحواذها على السلطة في ألمانيا وتوسعها لاحقاً نجمَ بفعل آليات سياسية وفكرية خاصة. وبحسب رؤية لوكاش، ظهرَ ممثلون بارزون للفاشية، أو "الرجعية الاجتماعية والسياسية" بحسب كلماته، في دول غربية عديدة. ففي العام 1789 لمعَ نجم بيرك Burke في إنجلترا، وبَرَزَ في فرنسا لاحقاً بونالد Bonald ودوميستير de Maistre وغيرهم، غير أنَّ دور اللاعقلانية السياسية (النازية) في ألمانيا كان حاسماً. فألمانيا في القرنَين 19 و20 تظل بَلَدَ اللاعقلانية "الكلاسيكي". فقد عَرَفَتْ التطورَ الأكثر تنوعاً واتساعاً للفاشية، وبالنتيجة يُمكن دراستها بأكبرِ قدرٍ من الفائدة، كما دَرَسَ ماركس الرأسماليةَ في إنجلترا[3].

وعبر الاستعانة بالمنهَجَين الوصفي وتحليل المضمون، يمكننا سَبر أغوار النصوص وعلاقتها بالأحداث التاريخية والسياسية ذات الصلة بظاهرة الفاشية. بحيث سنعمل على معالجة طروحات لوكاش عبر توزيعها الى **ثلاثة محاور** رئيسة: ففي **أولاها** سُنسلِّط الضوء على دراسة الخصوصية الثقافية والقومية للألمان وهاجسهم بشأن استمرارية الدولة، بهدف دراسة الظروف الزمانية والمكانية لِولادة الفاشية الألمانية، وكيفية نشوئها فكرياً بإعتبارها نموذج اللاعقلانية الألمانية. وفي المحور **الثاني** سنحاول دراسة أسباب بروز الفاشية بعامة والنازية منها بخاصة. أما في المحور **الثالث** فسوف نسعى لِتبيان منظور جورج لوكاش الى كيفية مواجهة الفاشية الألمانية والتخلّص منها فكرياً وعملياً، لنصل بعد ذلك الى الخاتمة.

أولاً – تحطيم العقل: النازية بوصفها نموذج اللاعقلانية

في المُستهَّل ولأغراض هذا البحث، فإننا نأخذ بالإتجاه القائل في تعريف "الفاشية"[4]: أنَّها سلوك سياسي يمتاز بالإنخراط في المجال السياسيPolitical Sphere بهدف الإستحواذ عليهِ كلياً، عبر تفكيك المجتمع واذلال

[3] للمزيد من التفاصيل أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983، ص ص 20، 31–32.

[4] لُغوياً ترجع كلمة الفاشية Fascism الى جذرها الايطالي فاشيو Fascio، وتعني "حُزمة أو رُزمة أو العُصبة". وقد عمدَ موسوليني الى استحداث كلمة Fascismo لوصف فرقة صغيرة من المحاربين القُدامى والنقابيين المؤيدين لإنخراط ايطاليا في الحرب العالمية الاولى. أما من احيث التنظيم السياسي، فقد تأسست الفاشية في مدينة ميلانو الايطالية بتاريخ آذار

مكوِّناتهِ المجتمعية والتضحية ببعضها لِصالح الجماعة المهيمنة وبدواعي تحقيق الوحدة السياسية والنقاء العِرقي والقوة. بحيث يقوم حزبٌ سياسي مكوَّنٌ من حشدٍ من القوميين المُتزمتين وبتعاونٍ فعَّال مع النخبة التقليدية، بالعمل على تجريد الحريات والديمقراطية من مُحتواها، واعتماد العنف المُنظَّم دونما تَقيُّدٍ بأهدافٍ اخلاقية أو قانونية من أجل التطهير العرقي داخلياً والتوسع خارجياً[5]. ومثل هذا السلوك السياسي بدورهِ يُحيلُنا الى الأفكار الأساسية التي تقومُ عليها الظاهرة الفاشية بعامة والنازية منها بخاصة. فقد شدَّدت التجربتان الألمانية والايطالية على مُناهضة الشيوعية والنزعة المادية للرأسمالية والفردانية الليبرالية. بحيث يتمسَّكُ كلٌّ منهما بفكرة كون الفاشية تتوسَّط فكرياً هاتين الأيديولوجيتَين[6]، بمعنى أنَّها ليست باشتراكية ماركسية ولا رأسمالية–ليبرالية، بل هي "اشتراكية قومية" تَقَعُ في مكانٍ وسط بينهما. مما يدعونا الى معالجة المصادر الفكرية والظروف السياسية لإنبثاق الفاشية في ألمانيا بخاصة وأفكارها الجوهرية.

ففي كتابهِ "تحطيم العقل"، يُسلِّط جورج لوكاش الضوء على الفاشية الألمانية وذلك من حيث معرفة: كيف وقعتْ ألمانيا تحت سيطرة أدولف هتلر من الناحية الايديولوجية والفلسفية بالرغم من كونها صاحبة موروث

1919، حيث تجمَّع أكثر من 1000 شخص لإعلان إنشاء حركتهم السياسية، عبر التشديد على ضرورة الحرب على الشيوعية بخاصة. للمزيد من التفاصيل أنظر :

Maurice Cranston, “Fascism”, in, Donald M. Borchert, (ed.), Encyclopedia of philosophy, Vols. 3, Thomson Gale, Detroit, 2d Ed., 2006, pp. 553- 555.

[5] للمزيد من التفاصيل حول تعريفات مصطلح الفاشية أنظر وقارن مع روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، ترجمة عهود بنت خميس المخيني، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019، ص ص 48-49، 382. أنظر أيضاً:

David Robertson, The Routledege dictionary of politics, Routledege, London, 3rd Ed., 2004, pp.183- 184.

[6] وهنا ينبغي الاشارة الى أنَّ ظاهرة الفاشية قد مرَّت بخمس مراحل رئيسية: أولاها مرحلة خلق وتأسيس الحركة السياسية، وثانيها يتمثَّل في تجذُّر هذه الحركة وتشعبها داخل النظام السياسي وعبر التحول الى حزب سياسي مُعزَّز بميليشيات شبه عسكرية، وثالثها يتم فيه الاستيلاء على السلطة السياسية عبر الانخراط في الانتخابات والتحالفات والتوازنات السياسية. ورابعها يتجسَّدُ في استحواذها على السلطة السياسية وتسخير موارد الدولة لصالح الحزب وقيادتهِ. أما في المرحلة الخامسة، والتي تستغرق فترة طويلة نسبياً، فيعمدُ النظام الفاشي للإختيار بين التطرف والانغماس في حالة "الثورة الدائمة"، أو الانزواء والتحول الى مجرد دكتاتورية عسكرية. وليس بالضرورة أن تقوم الفاشية بإكمال كل هذه المراحل، ذلك أنَّ معظم التجارب الفاشية توقفت في مرحلة معينة منها، والقليل منها تحول الى أنظمة سياسية فاشية، وأنَّ ألمانيا النازية وحدها شهدت اندفاع النظام الفاشي نحو الآفاق النائية للتطرّف. للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 50-51، 382-383.

ثقافي وتنويري أصيل؟ ومن أجل الكشف عن هذه الكيفية، نَجِدهُ يَسعى الى تبيان: كيف أنَّ مجرى الوقائع التاريخية ينعكس في الفلسفة؟ وكيف استطاعت صياغات فلسفية بعينها، التي هي انعاسكات مجردة لتطورٍ واقعي، أنْ تُعجِّلَ من مَسيرِ ألمانيا الى الهتلرية[7]. أي أنَّهُ يُحاول سَبْرَ أغوار البيئة الفكرية والفلسفية التي تمخَّضت عنها النازية الألمانية. ذلك أنَّ احدى طروحات لوكاش الاساسية هي أنَّهُ ليست هناك من فلسفة "بريئة Innocent"، اذ أنَّها كيفما إنحازتْ سواءً عبر العقل او بالرغم منه، فإنَّ فلسفةً من الفلسفات سَتقرِّرُ طبيعتها الفكرية ودورها في تطور المجتمع. "لِكون العقل نفسه لا يمكن أنْ يكون حيادياً يُحلِّقُ فوق الاحزاب والتطور الاجتماعي. فهو يعكس في كل لحظة درجة المعقولية واللامعقولية الواضحتَين لِحالةٍ اجتماعية ما، ولإتجاه تطورٍ ما، بحيث يُعبِّرُ عنه بصورةٍ مجردة، ويستطيع بذلك عينهِ أنْ يُسهِّلَ أو يُوقِفَ تقدُّمهُ... حتى وإنْ كانت محتويات وأشكال العقل عُرضةً لِتقييداتٍ إجتماعية وتاريخية، فإنَّ الطابع التقدّمي لِحالةٍ اجتماعية ما أو لإتجاهِ تطورٍ ما يَبقى شيئاً موضوعياً، وفعَّاليتهُ لا تتوقف على وَعْيهِ. فالمسألة عندئذٍ هي معرفة ما اذا كان هذا الاندفاع الى الأمام يُعَّدُ من العقل أم اللاعقل، وهو الأمر الذي على أساسهِ يَجري قبولهُ أو رفضهُ: فالجواب على هذا، سيُقرِّرُ توزُّعَ الأذهان ويُحدِّدُ المواقع الطبقية في الفلسفة"[8]. مما يعني ذلك، وجود موقفٍ سياسي ما، أو إتجاهٍ أيديولوجي معين، أو مقاصد وغاياتٍ فلسفية معينة وراء الأفكار والطروحات السياسية بعامة. ثم إنَّ هذا المنظور الانحيازي يشمل عادةً المفكرين واتجاهاتهم الفكرية من حيث أنَّها تعمل لِصالحِ غاياتٍ سياسية وفكرية بذاتها. ويَسْتَشهِدُ لوكاش بمثالٍ لِتوضيحِ فكرتهِ حول "عدم براءة الفلسفة". فيؤكد على وجود علاقةٍ أيديولوجية بين موسوليني من جهة وبين بِرغسون Bergson وجورج سوريل Georges Sorel من جهةٍ أُخرى. " فإذا لم يكنْ بِرغسون قد بَسَطَ هو نفسهُ أخلاقهُ وفلسفتهُ على التاريخ الى نتائجها الفاشيستية، فإنَّ ذلك لا يكفي لِتحرير مسؤوليتهِ أمام البشرية، نظراً لِحقيقةِ أنَّهُ من فلسفتهِ وبدون تزويرها قد إستطاعَ موسوليني أنْ يَستمِّدَ إيديولوجيةً للفاشية". وكذلك الحال في العلاقة بين أدولف هتلر وبين أوسولد شبنجلرOswald Spengler وستيفان جورج Stefan George بوصفهما من المصادر الفكرية الرئيسية للنازية[9]. كما يُمكن في هذا السياق الإستشهاد أيضاً بِقُطبي الفلسفة السياسية الألمانية: يوهان فيخته (1762– 1814) وجورج هيغل (1770– 1831). فقد شدَّدَ فيخته على الحاجة الى بناء مجتمعٍ مُنَسَّقٍ ومخّطط تخطيطاً حَسَناً، ومُدبَّراً على صورة نظامٍ يتمتَّعُ بالإكتفاء الذاتي والوحدة السياسية ذات السيادة المطلقة. وبذلك، فقد غدا تركيزهُ مُوجَّهاً نحو شكلٍ من أشكال النزعة الجماعية Collectivism بوصفها الأداة المُثلى

[7] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص22.

[8] المصدر نفسه، ص3.

[9] المصدر نفسه، ص 31.

لِبناء هذا المجتمع. "وهذا ما يَجعل فيخته أباً لِذلك الضرب من السياسة القومية التي تعمل على تحقيق "الإشتراكية في بلدٍ واحد"، وإنْ لم يكنْ أباً "للإشتراكية القوميةNational Socialism" بمعناها النازي" على حدِ تعبير المؤرخ البريطاني جورج كول George D. H. Cole[10]. بعبارةٍ أُخرى، إنَّ ثنائية "الفكر – الممارسة" تربط الى حدٍّ ما بين فيخته وبين جوزيف ستالين وهتلر بالرغم من الفارق الزمني.

أما الوضع في حالة هيغل، فنجد أنَّهُ بعد قضائهِ على التأثير الفكري والسياسي لِفيخته، "أمسى هيغل فيلسوفَ بروسيا الرسمي وفيلسوف الحركة التي قادتها بروسيا من أجل تحقيق الوحدة الألمانية". فبينما كان فيخته يَنطلِقُ من فكرة كون الفرد وقوته العقلية هما مصدر التقدم الإنساني وضمانتهِ وأنَّ المجتمع يَعلو على الدولة، فقد أصرَّ هيغل على كون الدولة تعلو على المجتمع وأنَّ الفرد ليس في ذاتِ نفسهِ شيئاً مذكوراً بل هو مجرد جزءٌ من الكل، والمُتمثِّل في كيان الدولة الشامل. وإنَّ مهمَةَ الفرد لا تتجسَّدُ في إطلاق الأحكام (الخير والشر) بل البحث عن مركزهِ في خدمة هذا الكلِّ الكبير، والذي بدورهِ لم يكن يُمثِّلُ الإنسانية قاطبةً، فحدودهُ لم تكن تعدو تخوم الدولة التي يَنتَسِب اليها الفرد. وفي المقابل من ذلك، يؤمنُ هيغل بقدرات رجال الدولة الذين ينبغي عليهم "أنْ يختاروا أنفسهم بجعلِ أنفُسهم سادةً لتلك الدول التي هي أدوات التاريخ المُختارة". والدولة البروسية بخاصة هي واحدةٌ من تلك الدول التي ينبغي أنْ تَنْشُرَ رسالتها الحضارية عبر تمدين سائر الدول والسيطرة عليها[11]. ومثل هذا الطرح الفكري من جانب يُؤكِّدُ صوابَ رؤية لوكاش بشأن إستمرارية علاقة "الفكر–الممارسة" ولكن هذه المرَّة بين هيغل والمستشار الألماني أوتو فون بسمارك. من جانبٍ آخر، يبيِّنُ هذا الطرح بِمُجملهِ أنَّهُ من الصعوبة بمكان ضمن المجال السياسي تجريدَ الأفكار والنظريات السياسية من الانحياز والآراء الأخلاقية سواءً لدى أولئك الذين صاغوها نظرياً أو الذين يُمارِسونها عملياً. فالسياسة العملية بخاصة يَصدُقُ عليها هذا التشابك كما يصدق على مجال النظرية السياسية. أي بمعنى أنَّ حقلَ السياسة عادةً ما تكون فيهِ الحقائق Facts والقيم Values متشابكة على نحوٍ لا يمكن الفَكاكَ منه بسهولة، كما تكونُ

---

[10] ج. د. هـ. كول، روَّاد الفكر الإشتراكي، ترجمة مُنير البَعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1978، ص 332. للمزيد من التفاصيل أنظر أيضاً بيتر كونزمان وآخرون، أطلس–dtv الفلسفة، ترجمة د. جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط2، 2007، ص ص 147–149.

[11] مما يُشيرُ ذلك الى أنَّ تفسير هيغل للدولة كان مُعادياً للديمقراطية، وإنَّ إحتقارهُ للفرد وللأحكام الشخصية قد جَعَلهُ ضيِّقَ الذَرع بحق الإقتراع والندوات النيابية الشعبية أو أيَّ شكلٍ من أشكال الإستقلال الذاتي أو حقوق الإنسان بِرُمتها. ذلك لأنَّ الناس، كأفراد Individuals، لا قيمة لهم البَتَّة من منظورهِ. للمزيد من التفاصيل أنظر ج. د. هـ. كول، روَّاد الفكر الإشتراكي، مصدر سابق، ص ص332، 344–346. أنظر أيضاً بيتر كونزمان وآخرون، أطلس–dtv الفلسفة، ترجمة د. جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط2، 2007، ص ص 155–157.

مُحمَّلةً بمضامينٍ أخلاقية وأيديولوجية بذاتها[12]. ومن ثمَّ، يقودنا هذا التمهيد الفكري مع لوكاش الى مصدر فكري آخر لِتبلور الاتجاه الجماعاتي والشمولي ضمن البيئة الفكرية الألمانية، وذلك عبر الاشارة الى اللاعقلانية الالمانية لدى فيلسوفٍ واسع التأثير وهو آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer[13]. إذ أنَّ طروحاتهُ لم يُكتَبْ لها البروز الا بعد هزيمة ثورات العام 1848 في ألمانيا والكثير من دول أوروبا بعامة. فقد كان هذا البروز بمثابة "ضرورة فَرَضها التاريخ" بحسب لوكاش. ذلك أنَّ الحِقبة بين عامَي (1789–1848) في ألمانيا هي الحقبة التي جَمَعت الثورة فيها قوى الديمقراطيةَ البرجوازية، بينما كانت الكتلة الكبرى من القوى الطبقية الرجعية (أي الاقطاع والارستقراطيين بعامة) كتلةً موجهةً على الضِّدِ من مطامح الديمقراطية البرجوازية. "فقط مع هزيمة ثورة 1848[14] يَحدثُ التحوّل: عندئذٍ تنبسط لاعقلانية برجوازية، لِتغدو ردَّة فلسفية متطرِّفة تُعبِّرُ عن وجهة النظر الطبقية للبرجوازية وفي خدمة مصالحها الطبقية النوعية الخاصة. ومن هنا

---

[12] For more details see and compare with: Andrew Heywood, Political theory: an introduction, Palgrave Macmillan, New York, 3d. ed., 2004, pp. 4–5.

[13] فيلسوفٌ وأكاديمي ألماني ولد في مدينة دانزيك Danzig عام 1788، درس الفلسفة بين عامي (1809 –1811)، ثم أكمل دراساته العليا بجامعة برلين بين عامَي(1813–1811). عاش بعد إنتحار والدهِ عام 1805 حياةً تعيسة بسبب خلافاتهِ العائلية حتى وفاتهِ عام 1860. أشتهر شوبنهاور بفلسفتهِ التشاؤمية وتأثرهِ بالديانة البوذية بخاصة. فهو يؤمن بالعدم والموت ويرى في الحياة شراً مطلقاً. كما يَربِطُ بين مفهومَي الارادة والعقل: فيرى أنَّ العقل وسيلة بيد الارادة ومجرد تابع لها. وإعتقد بأهمية الدافع الجنسي بحيث يجعلهُ بمثابة الركيزة الأساسية لحياة الفرد والجماعة، ويمكن على أساسهِ تفسير كل سلوك إنساني. وهو بذلك يُعَدُّ بمثابة المصدر الفكري الأساس لِنظرية سيجموند فرويد في علم النفس. للمزيد من التفاصيل أنظر:
Patrick Gardiner, “Arthur Schopenhauer”, in, Donald M. Borchert (ed.), Encyclopedia of philosophy, Vol. 8, Thomson Gale, 2nd. ed., Detroit, 2006, pp. 647–653.

[14] في العام 1848 إندلعتْ سلسلةٌ من الثورات في مُختَلَف أنحاء أوروبا، بحيث بدأت في جزيرة صقلية الإيطالية، ثم إنتقلتْ الى سائر ايطاليا تدريجياً. أما في المانيا فقد بدأتْ الثورة في مدينة بادن Baden في شهر آذار، ثم إنتقلتْ الى مدينة برلين وكانت عنيفةً لِدرجةِ أنَّ أمير إمارة بافاريا أُكرِهَ على التنازل عن عرشهِ. وفي شهر أيلول من السنةِ نفسها مُنِيَتِ الثورة بالإخفاق في بادن وكل بروسيا القيصرية. بيدَ أن الثورة أخذت تشتعل بشكلٍ أوسع في نيسان عام 1849، فقد شملت إماراتٍ أخرى: سَكْسونيا والراينلاند Rhineland والبالاتينايت Palatinate، غير أنَّها هُزِمتْ جميعاً. أيضاً، كانت الثورات تجري مجراها العنيف في فرنسا و دول أُخرى. وفي الوقت نفسهِ شَهدت هولندا وبلجيكا وسويسرا إصلاحاتٍ دستورية معتدلة دون ثورة. ووفقاً لتعبير جورج كول: "إذا إستَثنينا فرنسا، إستطعنا القول أنَّ ثورات عام 1848 لم تَنطوِ على شيئٍ من الإشتراكيةِ يُذْكَر. وحتى في فرنسا لم يَستطِعْ الإشتراكيون، البَتَّة، أنْ يقوموا بأكثر من دورٍ ثانوي... ففي كلِّ مكان، كانت حركات العام 1848 ذات نزعة دستوريةً في المقام الأول، مع مَزيجٍ قوي من النزعةِ القومية في إيطاليا وألمانيا والنمسا–المجر". للمزيد من التفاصيل أنظر ج. د. هـ. كول، روَّاد الفكر الإشتراكي، مصدر سابق، ص ص 416 – 420.

جاءت شعبية فلسفة شوبنهاور التشاؤمية بعد العام 1848"[15]. بحيث نجَمَ عن ذلك "حركة تزوير للتاريخ الالماني" وعبر "جَرْمَنةِ" كل الوجوه المتخلِّفة في هذا التاريخ. فقد أضحى المؤرخون الألمان يُطلِقونَ على تأخُّر ألمانيا وتَخلُّفِها ألقابَ المجد والسُّمو، وأنَّهُ تعبيرٌ عن "الروح الألمانية الخالدة". بينما يجري عرض كل ما يتعلّق بالديمقراطية والمبادئ الثورية في الغرب من زاوية أنَّهُ "غير ألماني"، وبالتالي فإنَّ كل المستوردات المضادة لتلك "العبقرية القومية" ينبغي أنْ تُنتَقَدَ وتُرْفَض. هذا التزييف، بحسب لوكاش، لا ينحصر في دائرة الحوادث التاريخية من حيث كيفية اختيارها ووصفها، بل مارَس أيضاً تأثيرهُ السلبي في منهجية العلوم الاجتماعية والتاريخية، لِيُعديَ بذلك كلَّ الفكر الاجتماعي والتاريخي الالماني. هذا التيار الفكري الذي كان موجوداً في الماضي ويَبسط نتاجاتهُ الفكرية على يد التيار الرومانسي بشكلٍ واسع، أصبح هو الاتجاه المهيمن بعد ثورة 1848، مما مَهَّدَ السبيل لرسوخ ذهنية الخضوع لدى عوام الناس لِصالح السلطة بعامة والارستقراطية ورجال الدين بخاصة[16]، ثم الانقياد لِقادة الأيديولوجية النازية لاحقاً.

وعليهِ، يمكن القول بكون الفاشية الألمانية تُجسِّدُ لدى لوكاش قِمَّة تطور اللاعقلانية الفلسفية في ألمانيا، بحيث تطورت فكرياً وسياسياً عبر التقاء مجموعة روافدَ فكرية، من أهمها ما يلي:

1- الروح الألمانية وهاجس استمرارية الدولة ووحدتها:

جَرَتْ ولادة النازية في ظل ظروفٍ ذاتية وموضوعية في آنٍ واحد، مما يستوجب تسليط بعض الضوء على هذا العامل الذاتي والمتمثل بخصوصية الفرد الألماني، أي الذات الحية التي يشعر بها الفرد ويحياها ويُمارِسُ حياتهُ من خلالها، وهي ما يُعرفُ بـ"الروح الألمانية Die Deutsche Seele" بوصفها تجسيدٌ للذات ووعيها الثقافي واستقلاليتها. فقد لاحَظَ المفكر الفرنسي **أندريه سيغفريد** أواخر القرن 19، ظاهرة الاندماج بين شخصية الفرد الألماني وبين العمل Labour الى حدِّ التطرف في ظل الثورة الصناعية والرأسمالية، ليُشكِّل ذلك مجموعة قناعات ذاتية موروثة في مرحلة ما قبل ظهور النازية، وذلك بقولهِ: "يتفاخر الألمان بالدقة والمثابرة، أي بإنجاز الاعمال حتى النهاية... وعندما تُسيطر الطريقة والمنهج على روحٍ جرمانية، فإنَّها تَستحوِذُ عليها بالكامل، فيصيرُ الألماني حينها مُخلِصاً لِهدفهِ... لِدرجةِ أنَّهُ إذا أُطلِقَ لهُ العنان... فإنَّهُ

---

[15] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج3، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص8.

[16] للمزيد من التفاصيل أنظر تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص ص 48-53. أنظر ايضاً جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق، ص 196.

يمضي في طريقهِ لا يلوي على شيء غير مُعتمد الا على طريقتهِ الخاصة، وبهذا يُصبِحُ نوعاً ما وكأنَّهُ هو العمل نفسهُ الذي يَجِدُّ في متابعتهِ، مُتحرِّراً من كلِّ حكم مُسبَّق، ومن كلِّ قَيدٍ أخلاقي، ويكون في ذلك منطقياً مع نفسهِ الى حدِّ الشَراسة والتَوَحش"[17]. ولعلَّ ما يتناغم مع هذا الوصف هو مصطلح "الهاوية Abgrund"، بوصفهِ من أكثر المصطلحات الألمانية عُمقاً في التعبير عن خصوصية الفرد والثقافة. فالفرد الألماني تَعَوَّدَ الثقة بما هو ثابت، ولكن في أدبهِ وتاريخهِ إكتشف أنَّ هذه "الهاوية" تكمنُ في نفسهِ. فالهاوية هي ما لا قعْرَ له، أي ليس لها من أصلٌ ثابت. وهذا ما قَصَدهُ هايدغر حين تحدَّث عن "هاويات" الفكر والوجود أو الكينونة. ومن ثمَّ فإنَّ الفلسفة حينما تريدُ البحث عن ثباتٍ وقرار، عن الخير والحق والجمال، فإنَّها تكتشف عُمق هذه الهاوية، "فتجدُ القَلَقَ الوجودي... القادر في كلِّ وقت على زعزعة الوجود". كذلك الفيلسوف، فهو يعمل على الدفع خارج الهاوية، حتى هاوية الدين حيث الانسان مُقابَلٌ بالدفع بدل الذنب، بدل الدَّين[18].

وفي ضوء ذلك، يُمكننا القول بأنَّ الشخصية الألمانية وحتى وقتٍ قريب ظلَّت مُستقطبةً بواسطة قوتَين ذاتيتَين، إحداهما تجذبهُ نحو الانغماس في (هاوية) الثقافة الألمانية والأخرى تدفعها بعيداً للتخلص منها وتجاوزها. فالأولى تتجسَّد في مجموعة عوامل متلازمة تعمل على الحؤول دون السقوط في تلك (الهاوية). أما الثانية فهي تتجسَّد في المعتقدات والتصورات العرقية، التي تدفعهُ للإنغماس في التعصب العرقي تجاه الثقافات والاعراق الاخرى داخل أوروبا وخارجها.

وفي سياق الحالة الثانية محَّل الدراسة، يتّسم الفكر السياسي الألماني بنزعتهِ القومية والوحدوية ولأسبابٍ عِدّة، لعّلَ أبرزها تأخّرُ الوحدة السياسية الألمانية مقارنةً مع الدول الأوروبية الاخرى، وتشتّت الألمان على 38 إمارة (دولة) التي لم تتحد الا في العام 1815 وضمن اتحادٍ كونفيدرالي هشّ بهدف الحفاظ على أمنها الداخلي والخارجي، وكان أطرافهُ محل استقطابٍ وصراع سياسي متواصل بين النمسا وبروسيا القيصرية، ناهيك عن إنقسامها المذهبي بين الكاثوليكية والبروتستانتية. ومن جملة آثار هذا الواقع السياسي والديني، أنَّ

---

[17] أندريه سيغفريد، روح الشعوب، ترجمة عاطف المولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ص 120.

[18] ولم يكن الألمان وحدهم منْ وقع في الهاوية، فالإغريق، جعلوا جهنم في باطن الارض، بحيث لم يمنع ذلك **أرفيوس** من الفناء حينما حاول إخراج حبيبتهِ من العالم السفلي الى ضوء النهار. للمزيد من التفاصيل أنظر جورج كتورة، الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم، قراءة ومحاضرة حول كتاب الروح الألمانية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، كانون الأول ٢٠١٥، ص ص 7- 8.

الرابطة القومية أضحتْ تعبيراً عن السعي لتجاوز وضعية تشظي الواقع السياسي والطائفي[19]. ومن ثمَّ، فإنَّ وحدة الدولة كانت دوماً هاجساً ومَطلَباً مُلِّحاً لدى الألمان بعامة. فالدولة الموحَّدة لم ترَ النور حتى العام 1871، فكانت قبل ذلك وبحسب تعبير شيللر عبارة عن "كيانٍ يسكن الثقافة". بمعنى أنَّ ولادة الدولة شهدت عملية مخاضٍ سياسي عسير، ورافق ذلك اسباغ طابعٍ روحي وفكري على مشروع بناء الدولة الموحَّدة لكي يغدو أكثر ثباتاً وقراراً في نفوس الأفراد ومعتقداتهم، ليجري بذلك التشديد على فكرة كون وجود الأمة واستمراريتها يسبق الوجود السياسي للدولة. كما أضحى منظورهم الى مفهوم "الشعبVolk" ذي طابعٍ عضوي، فهو يعني أنَّ "الانتماء القومي" ليس مسألة اختيار أو إيمان وإنَّما هو جامعة عضوية تربط بين الفرد وجماعتهِ الطبيعية وبين الأرض التي يعيشون فيها[20].

2. النظرية العرقية Racial Theory:

ينبغي القول بكون مثل هذه النظريات هي في الأصل مشاريع فكرية لِتبرير الهيمنة العرقية، أي تحقيق السيطرة من قبل عرقٍ بشري معين على الاعراق الأُخرى. وعبر الاستناد الى مبدأ يفترض أنَّ البشرية مقسَّمة الى مجموعاتٍ متمايزة عرقياً أو إثنياً أو من حيث اللون، بحيث تتفاوت بعضها عن البعض الآخر: "فَمنها ما هو متفوّق ومنها ما هو متخلِّف"[21]. وقد تجلَّت بوضوح ممارسة هذا النظرية داخل الثقافة الغربية في القرنَين 18 و19 بخاصة، بحيث كان من الطبيعي أنْ تُولدَ النظرية العرقية عن الحاجة الى تبرير المشروع الاستعماري الأوروبي. "لأنَّ شعباً ما لا يمكن أنْ يَضطهِدَ شعباً آخراً الا اذا إعتقد او حُمِّلَ على الاعتقاد بأنَّه

---

[19] وللمزيد من التفاصيل أنظر د. نورالدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية: يقضة القوميات الاوروبية (الوحدات القومية)، ج3، دار الفكر الحديث، بيروت، 1969، ص ص 15–16، 80– 81. كذلك يُمكن القول بأنَّ النزعة القومية وحتى بأشكالها المتطرِّفة (العرقية) ظلَّت نزعةً متوقدة لدى الألمان سواءً داخل ألمانيا الموحَّدة في العام 1871، أو خارجها ولدى ألمان النمسا والبلطيق وسويسرا مثلاً، من خلال العديد من الجمعيات والحركات السياسية القومية، مثل (الجمعية القومية الألمانية) في العام 1859 و(حركة الجامعة الجرمانية) في العام 1891. فقد دعتِ الأخيرة الى توسيع رقعة الامبراطورية الألمانية لتشمل المستعمرات ما وراء البحار وعلى أساس التفوق الجرماني. للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 29– 31، 123– 128.

[20] أنظر وقارن مع د.عبد الوهاب المسيري، موسوعة تاريخ الصهيونية، ج1، دار الحُسام للنشر، بيروت، 1997، ص ص 50–52. وللمزيد من التفاصيل أنظر الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم، مصدر سابق، ص ص 12، 32– 33، 45– 46، 47.

[21] للمزيد من التفاصيل أنظر ريمون رويّه، نقد الإيديولوجيات المعاصرة، ترجمة د. عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1989، ص ص7–8، 17–18. أنظر أيضاً د. عبدالوهاب الكيّالي وآخرون، موسوعة السياسة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 1999، ص771.

خيرٌ منه. وقد بَرَزَ ذلك حتى في أكثر دول أوروبا تخلّفاً في القرن 19 مثل البرتغال". وفقاً لتعبير روجيه جارودي[22].

وقد تبلورت النظرية العرقية في ألمانيا تدريجياً وبفاعلية عبر كتابات مجموعة أُخرى من المفكرين ولا سيّما جوزيف أرتور دو غوبينو (1816–1882) وهيوستن تشمبرلين. فقد أطلق غوبينو عقيدة تفوّق الألمان في بروسيا القيصرية، وذلك حينما أيَّد فكرتهم ومُجمل الأنجلوسكسون بشأن قيمتهم والدور الذي ينبغي أنْ يقوموا به في العالم. "وطبقاً لهذه الاطروحة لم يعد ساكن الشمال بالضرورة أكثر فهماً من السلافي أو اللاتين، لكنَّهُ يَفوقهما خِلقةً وجدّيةً"، أي يتفوق بما يُسميهِ "الشعور بالقيادة" والتي تعني حُسن الاستعداد للرياسة والسيطرة. بحيث يَعُدُّ الألماني نفسه... أنَّهُ من عِرقٍ مُتَسامٍ عن بقية الاعراق، فهو يُقارن نفسهُ في فخر إما بالعرق اللاتيني المنحط وإما بالسلافي ذي العرق الأدنى، وحيث يرى أنَّ زعامتهُ عليهما أمرٌ عادي لا بل هي بشكلٍ من الاشكال شرعية وجوهرية"[23]. أما تشمبرلين فقد كان من المصادر الرئيسية للنازية الألمانية، فهو يعتقد بأنَّ "شعب النور الجرمان– الآريين في صراعٍ ضد قوى الظُلمات: اليهودية وروما... وما أنْ نتكلم عن البشرية بوجهٍ عام، وما أنْ نتخيل بأنّنا نكتشف في التاريخ تطوراً وتربيةً للبشرية حتى نُغادِرَ مَيدان الوقائع لِنضيع في مجرداتٍ فارغة. فهذه البشرية التي تفلسفوا بصددها كثيراً حتى الآن، تعاني من عيبٍ كبير يتجسد في أنَّها غير موجودة. وحدها الأعراق موجودة أما النظرية البشرية فهي عقبةٌ أمام فَهْمٍ صحيح للتاريخ وينبغي العمل على إستئصالها كالعُشب السيء... إنَّ مَدَنيتنا وثقافتنا الراهنتَين هما جرمانيتان نوعاً، إنَّهما حصراً من صنع الجماعة الجرمانية"[24]. ومن ثمَّ، فأنَّ سيطرة الجرمان على العالم أمرٌ حتمي، لِكون "السيطرة الالمانية في أوروبا لن تُنهيَ الصراع، بل سيكون من الواجبِ إخضاع العالم كافّة، اذ ليس من خيار إلا بين الهيمنة والانحدار. فألمانيا لا يمكن أنْ تكون سوى قوةً مُهيمنة عدوانية، لأنَّهُ اذا لم تصلْ ألمانيا الى السيادة العالمية فأنَّها ستختفي من الخريطة. ذلك اذن خيارٌ لا مَفَرَّ منه"[25].

وعليهِ، يمكن القول مع روبرت باكستون، أنَّ الفاشية "غَمامةٌ من التوجهات الفكرية، ولم يضع مفكرٌ واحد نظاماً فلسفياً تاماً لدعم الفاشية... حيث ترتبط بشكلٍ ملموس بمجموعة من "الأهواء المُسْتَنهَضة" والتي تُشكِّل

---

[22] روجيه جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ترجمة د. عادل العوّا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط4، 1999، ص53.

[23] أندريه سيغفريد، روح الشعوب، مصدر سابق، ص 112.

[24] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج4، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص91.

[25] المصدر نفسه، ص96.

الفعل الفاشي أكثر من أنْ تصوغ فلسفةً متماسِكة وواضحة المعالم". فهي تُشدِّدُ على تعريف نفسها من خلال مهاجمة "الآخر" والتنكيل بهِ، كذلك العناية المتزمتة بـ(الأنا أو الذات) القومية والعرقية، الى جانب نظرتها التآمرية والمانوية في وصف الحياة بكونها صراع بين مُعسكرَي الخير والشر، بين النقي والفاسد[26]. وتتمثَّل تلك "الأهواء" والمعتقدات الرئيسة في ما يأتي ذِكرهُ:

1- الشعور بوجود أزمة معقدة للغاية ولا يُمكن معالجتها بواسطة الحلول التقليدية.

2- سيادة الجماعة وهويتها، أي بمعنى تكون الجماعة ذات مهامٍ أعلى مَقاماً من كلِّ الحقوق والحريات، سواءً أكانت فردية أم كونية، ومن ثمَّ تبعية الفرد للجماعة نفسها.

3- الاعتقاد بكون الجماعة محل الانتماء هي الضحية، مما يُبرِّرُ أيَّ فعلٍ دون حدودٍ أخلاقية أو قانونية، ضدَّ أعدائها الداخليين والخارجيين معاً.

4- الخوف من تفكُّك الجماعة وانحلالها بفعل التأثيرات الهدّامة لليبرالية والشيوعية.

5- الحاجة لإندماج إجتماعي وعرقي يقودُ الى بناء جماعةٍ أنقى عِرقياً وعبر شتّى السُبل.

6- الحاجة لِتخويل القادة الطبيعيين للوصول الى السلطة، بحيث تَتوَّجُ هذه الحاجة في شخص الزعيم القومي، بوصفهِ الشخص الوحيد والقادر على تجسيد المصير التاريخي للجماعة.

7- حقُّ "الجماعة المُختارة" في تسيُّد الجماعات الأُخرى دون التقيُّد بأيِّ قانونٍ بشري أو إلهي، وهو حقٌّ تُقرِّرهُ مجموعة معايير خاصة بالتفوق الطبيعي للجماعة وقدراتها

8- اعتمادُ العنف وفاعلية دور الارادة شريطة أنْ تَكونا مُسخَّرتين لِصالح الجماعة[27].

يَتبيَّنُ من ذلك، كون الايديولوجية النازية قد عَزفتَ على أوتارٍ عدة ضمن استراتيجيتها بعيدة المدى للوصول الى السلطة: فمن جانب عمدت بِسُبلٍ شتّى الى تبيئة افكارها ضمن النسيج الفكري الألماني، وهنا، تميَّزت بقدرتها التكييفية العالية مقارنةً مع الأيديولوجيات والنظريات السياسية الأخرى، من أجل استقطاب أكبر عددٍ ممكن الاتباع والمؤيدين ثم الاندماج في النظام السياسي ومؤسساتهِ. فهي بذلك تُولي التركيز على الهوية الألمانية ووحدة الاراضي الجرمانية وضمن سياق تعزيز مكانة هذه الهوية ما بين القوميات الاوروبية دون الخروج من دائرتها الثقافية وهاجس الدولة واستمرارية وحدتها، اي الإعلاء من أهمية الموروث الثقافي

---

[26] روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص 81. أنظر أيضاً وقارن مع:
David Robertson, The Routledege dictionary of politics, op.cit., p. 183.

[27] للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص82-83، 383- 384. أنظر أيضاً:
Maurice Cranston, Fascism, op.cit., pp. 554-555.

واستلهام ذكريات البطولة والأساطير الجرمانية. مما جعلها من جانبٍ ثانٍ، تمتازُ بقاعدة فكرية استعلائية للغاية تجاه (الآخر) ولا سيما اليهود والشيوعية. فمن المنظور النازي أنَّ اليهود لا يمكن أبداً أنْ يُصبحوا آريين، وذلك على اعتبارٍ مفادهُ أنَّ "الهوية الجرمانية مبنيةٌ على أساس الدم، وهذا الدم هو الذي أطلَق مشاعر وقدرات الروح الألمانية"[28]. أي أنها قائمة على أساس السلالة والإنحدار العرقي، وبالنتيجة ليس من سبيلٍ لإندماج "المختلفين" الى هذه الهوية العضوية والبايولوجية حتى لو رغبوا في ذلك بمحض ارادتهم. ثم أنَّ الفاشية بحاجة أصلاً الى "عدو شيطاني" بُغية استقطاب الاتباع بواسطتهِ داخلياً، وليس بالضرورة أنْ يكون العدو "يهودياً". فالأجنبي في ألمانيا النازية، كذلك "القَذِر" و"المُعدي" و"التخريبي" عادةً ما يكونون مُختلَطين في صورةٍ واحدة مُشَيطنة عن "اليهود"، كما أنَّ الغجر والسود لم يكونوا بِمُستبعدين أيضاً[29]. ومن جانبٍ ثالث تؤكِّدُ النازية على أهمية التصنيع واشتراكية الدولة والتدخل الحكومي المباشر لِمعالجة الأزمات، بحيث اقتبست ذلك من اليسار الألماني ناهيك عن كون هذا الجانب نِتاجاً لِعقلية الأزمة واللاعقلانية القومية.

وفي هذا الصَدد، يُمكن تسليط المزيد من الضوء على طروحات الفاشية سيَّما نظريتها العرقية على النحو الذي أنضَجَهُ تشمبرلن. فطروحاتهُ في جوهرها مَبنيةٌ على أساس الإستخدام "الشرير" لمفهوم تحسين النسل eugenics، بحيث يجري جعل الحياة نفسها مرتبطة بمدى التناغم مع نموذج مثالي للكمال البشري. فأُولئك الذين تتطابق أوصافهم مع المعايير المثالية لهذا النموذج سيغدون هم المَشمولون فقط بدائرة الحياة الطبيعية. أما غيرهم من ذوي العاهات أو المشوّهين فيتّم دمجهم مع الأعراق الأُخرى بوصفهم جميعاً نوعاً بشرياً أدنى شأناً ومكانةً، ومن ثمَّ ينبغي عدم السماح لهم بالعيش مع النوع البشري الأعلى مقاماً. لكون الأدنى شأناً ومقاماً يُشكِّلُ تهديداً مباشراً لمصالح ذلك النوع البشري الكامل ورفاهيتهِ[30]. "ولكن حتى يتوفّر تصوّرٌ عن العالم ذي أُسسٍ هشَّة لهذه الدرجة، وعارٍ عن التماسك لهذه الدرجة، وغير علمي حتى هذه الدرجة من

---

[28] See and compare with: Brian Barry, Culture and Eqality: an egalitarian critique of multiculturalism, Polity Press, Cambridge, 2001, pp. 20-21

[29] كما عمدت الفاشية الأميركية الى "شيطنة" السود، وفعل الكاثوليك أحياناً الفعل ذاته مع "اليهود". وكذلك الفاشيون الطليان حينما "شَيطَنوا" جيرانهم الجنوبيين وبخاصة السلوفينيين والشيوعيين، ثم أضافوا بسهولة الى قائمتهم: الأثيوبيين والليبيين لاحقاً. للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص 76.

[30] See For more details see John Lechte, Key contemporary concepts: from abjection to Zeno's paradox, Sage Publications, London, 2003, pp.141. See also John Harris, "Life and death", in, Edward Craig, The Shorter Routledge encyclopedia of philosophy, Routledge, London, 2005, pp. 578-579.

العمق... [وهو تصوّرٌ في إستطاعتهِ] أنْ يَصيرَ التصوّر المهيمن، كان من اللازم وجود جوٍّ فلسفي ما يتجسد في: تفكك الثقة بالفهم والعقل، تحطم الايمان بالتقدّم، موقف التصديق أمام اللاعقلانية والاسطورة والصوفية. وفلسفة الحياة بالضبط هي التي خلقت هذه البيئة الفلسفية وعلى نحو غير واعٍ". وبالتالي، من غير الصواب القول بأنَّ فيلهَلْم دلتاي Wilhelm Delthey أو زيميل Zemel كانا واعيَين للفاشية، بل لم يكونا اسلافاً للفاشية على النحو الذي كان نيتشه أو بول لاغارد Paul Lagarde. ولكن ما يهمنا هنا، ليس القيام بتحليلٍ سيكولوجي للنوايا، بل التطور الموضوعي للاعقلانية والفاشية. وبهذا المعنى، فإنَّ الصواب وفقاً الى لوكاش، هو أنَّ جميع هؤلاء المُفكِّرين الذين أشرنا اليهم قد أسهموا في إنتاج البيئة الفلسفية لِتبلور الفاشية الالمانية[31]. كما يمكن القول بأنَّ هذه اللاعقلانية الفلسفية في أوروبا عامةً وألمانيا بشكلٍ خاص كانت الاتجاه العام للفلسفة البرجوازية. وقد تمخّضت عن تراكمات فكرية وسياسية متواصلة، ذوات إمتدادات طبقية إقطاعية حتى بلغت مرحلة الفاشية. بحيث أنَّها في جُملتها كانت بالضِّد من المادية الجدلية والتاريخانية، اي بالضِّد من الاشتراكية وطبقة البروليتاريا، بحيث يَمتَّدُ هذا التوجه من شيلنغ Schelling الى كيركوجارد Kierkegaard. أي من الرِّدة الاقطاعية ضد الثورة الفرنسية 1789، الى قيام البرجوازية بِمُناهَضة النزعة التقدمية الاشتراكية التي برزت في العام 1848 وقيام كومونة باريس، إذ عبَّرتْ بدورها عن مطامح البرولتياريا الباريسية، حينما كان الاتجاه اللاعقلاني قد تجسد في نيتشه[32]. وربَّما تفسير ذلك نجدهُ لدى نيتشه نفسه، فهو يُوصف بكونهِ الأب الشرعي للفاشية. إذ احتوتْ كتاباتهُ على المادة الخام لتفكير عوام الناس ومُثقفيهم في اسقاط النظام والمجتمع الحديث، بهدف إعادة بناء الدولة والمجتمع وفقاً للموروث الثقافي. كما أنَّ طروحاتهُ أثارت العوامَ أنفسهم للتفكير في التأثير "السلبي" لليهود واجتثاثهم[33].

ومثل هذا المنظور يكشف أيضاً عن كون لوكاش ومفكِّري مدرسة فرانكفورت بعامة قد أدركوا منذ العشرينيات المنصرمة بأنَّ هيمنة اللاعقلانية (النظرية العرقية) قد أسهمتْ في اندلاع الحربَين الأولى والثانية وعدم استقرار أوروبا ثم تفكيك ألمانيا. فهم يلتقون بذلك مع منظور أندريه سيغفريد والقائل برسوخ القناعة الذاتية بأهمية العرق في أوساط الألمان ولا سيّما بشأن مفهوم "الشعب العضوي". فوحدة هذا الشعب "لا تكمن في الرباط الذي يَشُدُّهُ الى أرضٍ ما– كما هو الحال في فرنسا– بل في وَعيهِ أو على الأقل في إرادتهِ بأنْه يُشكِّلُ عِرقاً متماسكاً لهُ لغتهُ وثقافتهُ وإحساسهُ بوحدتهِ. إنَّ غريزتهُ الثابتة في أنْ يَفيضَ عن حدودهِ، جعلت منهُ

---

[31] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج3، مصدر سابق، ص ص16–17.

[32] أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص14.

[33] للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 67–69، 76– 77، 79.

خطراً دائماً على جيرانهِ... فطالما أنَّهُ يوجد في قلب القارة "ألمانيا": إما "غازية" وإما "مَغزوَّة"، وهي مَرِنة وعدوانية في الوقت نفسه، كما لا يُمكن من دونها بأيِّ حال إقامة أي بناء سياسي أوروبي دائم"، ومادام الألمان ينظرون الى أنفسهم على أنَّهم عِرقٌ متميز أكثر من كونهم أرضاً وحدوداً جغرافية، وأنَّ "المصير الجرماني هو مصير الجِرمانيين كافة...[فإنَّ مثل هذه المعتقدات ستغدو] هي العقبة الأكثر خطورةً التي تَقِفُ في وجه استتباب السلائم الدائم في أوروبا، وبخاصة في أوروبا الشرقية"[34]. ذلك لأنَّ ألمانيا حين تبنت هذه التصورات العرقية، فقد تسبَّبتْ في اندلاع حربَين عالميَتين، ففي الأولى كانت ألمانيا تَنتهِجُ النظام الامبراطوري، حيث قدَّمت لها بروسيا "الأسس والدعّامات الادارية والعسكرية، فإنخرطت فيها ألمانيا بكل ما تملك من طاقات الرغبة عن طواعيةٍ واختيار كما تأخذ الماء شكلَ الوعاء الذي يَحتويها. وفي ظل هذا النظام... كانت ألمانيا أشبه ما تكون... بِمَصنعٍ يرأسهُ مُديروهُ أو ثكنةٍ عسكرية تأتَمِرُ بأمرِ ضبَّاطها... وعلى [أساس هذه] الرغبة نفسها أسلمت ألمانيا قِيادَها الى هتلر بعد جمهورية فايمار (1918– 1933)... فقد وجدتُ في الدولة التوتاليتارية كل ما كانت في الحقيقة ترغبُ فيهِ"[35].

تأسيساً على المتقدم بيانهُ، يمكن القول مع لوكاش بأنَّ اللاعقلانية الالمانية هذه تحوي عنصرَين رئيسيَين، الى جانبِ عنصر ثالث لم يُعالجهُ لوكاش، وعلى النحو أدناه:

أ. **التبعية Dependency**: ويَعني بها لوكاش إستمرارية الاعتقاد برؤى النظام الاقطاعي–الارستقراطي تجاه الصراعات الطبقية في ألمانيا وفي العالم. بمعنى وحدة تطور التيار المناهض للعقل بحيث تمَّ فيهِ التشديد على مناهضة النهج الإشتراكي بعامة، ثم مناهضة ثورة اكتوبر 1917 وذلك في مقابل الدفاع عن الفاشية، بالرغم من كون الأخيرة قد تَخلَّتْ عن جذورها الاقطاعية واعتمدتها البرجوازية نفسها بوصفها أيديولوجية طبقية في سياق الدفاع عن مصالحها ضد البرولتياريا الالمانية[36]. وفي هذا الخصوص، يرى الباحث خلافاً للوكاش، أنَّ الفاشية لم تكن تُجسِّد مصالح البرجوازية أو بعضاً منها فقط، ففي المراحل الأُولى لنشوء الحركة النازية بين عامَي (1920– 1932)، تمكَّنت من استقطاب الفلاحين وأصحاب الأراضي والكثير من أبناء الطبقة الوسطى الدنيا، مثل: الحرفيين وأصحاب المَتاجر والمدرسين والفنّانين، وذلك جنباً الى جنب قُدامى

---

[34] أندريه سيغفريد، روح الشعوب، مصدر سابق، ص ص 104 و 116.

[35] المصدر نفسه، ص 126. وللمزيد من التفاصيل حول الروح الالمانية والقناعات العرقية التي شاعت في بروسيا حول تفوق العنصر الجرماني، أنظر المصدر نفسه، ص ص 110– 112، 126– 129.

[36] أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص ص15، 24. وللمزيد من التفاصيل أنظر وقارن مع:
Maurice Cranston, “Fascism”, op.cit., pp. 554–555.

المحاربين والجُدد ممنْ لم يتسنَ لهم الثأر لهزيمة الحرب العالمية الأولى. فقرَّروا جميعاً عن طريق الفاشية الإنتقام من (الأعداء) في الداخل والخارج. بحيث أنَّ مجموعةً القيم والمشاعر هي التي وحَّدتهم في المقام الأول وليس الخلفية الاجتماعية، مثل: النزعة القومية، وإزدراء النزعة المادية والاستغلالية للرأسمالية، ومعارضة اليسار الاشتراكي، واعتماد العنف[37].

ب. الوحدة الوثيقة بين الموضوعات والمناهج، بحيث يرافقها تقلص متواصل للجوانب الموضوعية ضمن الفلسفة، وعلى النحو الذي يجعل الفاشية الألمانية وبصورة كبيرة ذات طابعٍ دفاعي– تَقريضي (نَقدوي للآخر) الى جانب كونهِ ديماغوجي. إذ وفقاً لتعبير لوكاش "لقد مالتِ التشويهات والإفتراءات والديماغوجيا الى الحلول محَّل المجادلة العلمية الشريفة. هذه الحقيقة أيضاً هي الانعكاس الواضح لِكون صراع الطبقات قد غدا أكثر قسوة". من ناحيةٍ أُخرى، فإنَّ قول أنصار اللاعقلانية الألمانية بأنَّهم لم يقصدو التطرف وإلغاء الآخر بصورة مباشرة، فإنَّهم بذلك "يرمون هتلر وروزنبرغ من سفينتهم. وكانوا بذلك يَسعون الى حماية "الجوهر"، أي الشكل الأكثر رجعيةً للرأسمالية الاحتكارية، وإمكانية بروز إمبريالية ألمانية عدوانية جديدة في المستقبل. فالتخلي [في حقبة ما بعد الحرب] عن هتلر ذي المستوى البالغ الانخفاض في صياغتهِ "للقيم الحقيقية" التي يُجسِّدها شِبنجلر Spengler وهايديغر Heidegger أو نيتشه، إنَّما يعني القيام بمراجعة جوهرية في الفلسفة كما في السياسة، أي إيقاف القتال وتجميع قوات الرجعية وتمكينها حتى حلول يومٍ تكون فيه الظروف أفضل، لِيتِّمَ فيه المباشرة بهجومٍ جديد أكثر منهجيةً وتقوم به العناصر الرجعية المتطرفة"[38].

ج. ويُمكن اضافة عنصرٌ ثالث، سهى عنه لوكاش، ويتجسَّد في "البراغماتية الحادة" للنازية. فلو ألقينا نظرةً على كيفية وصول الأخيرة الى سدَّة الحكم، لوجدنا أنَّها تمّتَ بموجب صفقة سياسية، لِكون الحزب النازي صاحب كتلة برلمانية فاعلة وليس لأنَّهُ تمتَّعَ بأكثرية نيابية أو انتهجَ العنف والانقلاب العسكري. فخلال الفترة بين عامَي (1925–1933) تشكَّلت توازنات سياسية دقيقة للغاية، قادت بدورها الى تقارب المواقف السياسية ثم التحالف بين المحافظين والفاشية، وعلى النحو الآتي:

أ– إنَّ خوف المحافظين من استحواذ الشيوعية على الحكم، كان عاملاً حاكماً لِسلوكهم السياسي تجاه الاحزاب الألمانية الاخرى. كذلك اعتقادُ المحافظين بأنَّ احتكار السلطة عبر وسائل العنف والاكراه سيقود

---

[37] وللمزيد من التفاصيل بهذا الخصوص أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 101–102، 116– 119، 123– 125.

[38] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص ص 15، 24.

عامة الشعب والانتلجنسيا والطبقة العمالية للوقوع جميعاً في قبضة اليسار. ثم أنَّ استمرارية حرمان الأفراد من حقوقهم وحرياتهم الاساسية سيقود بدورهِ الى الاضطرابات الشعبية لِصالح الشيوعية والفاشية معاً.

ب– أما موقف النازية، فقد كان مُناهِضاً للاشتراكيين والليبراليين سواءً بسواء ولكن لأسباب مختلفة. فقد اعتقد النازيون بأنَّ الاشتراكيين واليهود هم "العدو". أما الليبراليون فهم مجرد شركاء لهذا "العدو"، لِعدم انتهاجهم التدخل الحكومي المباشر بغية معالجة أزمات الدولة. كما أنَّ حيازة (37%) من المقاعد النيابية عام 1932 قد جعل الحزب النازي يتمتع بقوةٍ كبيرة للمساومة دون غيرهِ من الاحزاب الفاشية. وكذلك، اذا بَدَا الفاشيون أنَّهم أكثر ميلاً لِزَعزعة الاستقرار السياسي بدلاً من مناهضتهم للشيوعية، فإنَّهم سيخسرون دعم المحافظين[39].

ومن ثمَّ، أثمَرَتِ المفاوضات بين الطرَفيَن عن حلٍّ وسط غير مثالي لِكليهما. فقد اعتقد المحافظون بأنَّ الحكم الشيوعي أسوء بكثير من الفاشية، وكذلك رأى النازيون أنَّ الشيوعية أكثر شروراً مقارنةً مع المحافظين والليبراليين. كما أدرك كلٌّ طرف أنَّه لا يستطيع الانفراد بالسلطة دون التحالف مع الآخر. فَنَتَجَ عن ذلك حيازة هتلر لِمَنصب مستشار الرايخ عام 1933. ووفقاً لِتعبير باكستون: "إنَّ مساحة الخيارات كانت ضيقةً أمام المحافظين، "لقد شَرَعوا في التفكير من خيارٍ الى آخر، وفي سلسلةٍ من البدائل وضمن طريقٍ من الخيارات الضيّقة. ومع كلِّ شوكةٍ في هذا الطريق، اختاروا الحلَّ المُعادي للإشتراكية". وبالنتيجة فإنَّ استحواذ هتلر على السلطة لم يكن أمراً حتمياً، بل أنَّ قدرتهُ التكيّفية والبراغماتية العالية هي التي مكَّنَتهُ من ذلك[40].

ثانياً – أسباب بروز الفاشية الألمانية (النازية)

إتساقاً مع ما تقدَّم ذِكرهُ، هناك عدّة أسباب جوهرية وراء بروز النازية وفقاً الى لوكاش. فبعضها يتعلَّق بِهَشاشة الموروث الثوري لدى الألمان، ومنها ما يرتبط بضعف البُنية السياسية وغياب المؤسسات الديمقراطية فيها. وهناك بعضٌ آخر من الأسباب يَتَّصِلُ بضعف البُنية الفكرية لليسار الإشتراكي والليبراليين الألمان بعامة، ناهيك عن شيوع الإحباط واليأس الفكري مجتمعياً. ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي بَيانهُ:

1. ضعف التقاليد الثورية:

[39] للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 44–45، 204.

[40] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 50، 182، 206–208.

تُعَّدُ ألمانيا من بين جميع الدول الغربية التي تَحوز على أضعف التقاليد الثورية. فأبرز ثوراتها تجسدت في ثورة عام 1848 التي استهدفت إنشاء الوحدة القومية بين الإمارات الالمانية، وهو ما لم تُحقِّقهُ هذه الثورة بل حقَّقهُ المستشار بسمارك وأُسرة هوهنزلرن Hohenzollerrn الحاكمة عام 1871. هذا الضعف جنباً الى جنب قيام الوحدة السياسية قد أسهما بدورهما في بروز "النزعة الليبرالية القومية" التي قامت بتصفية كلَّ تراثٍ ديمقراطي وتحولت أكثر فأكثر الى ممثِّلٍ لِمصالح المؤسسات الصناعية، وبالمحصلة الى "أداة رجعية في الداخل وعدوانية في الخارج تبعاً لسياسة أُسرة هوهنزلرن الإمبريالية". بمعنى آخر، أنَّ التقاليد الديمقراطية والروح النقدية بصورةٍ عامة كانت واهنة ومفكَّكة في ألمانيا، بحيث أنَّ إنهيار حكم العائلة المالِكة في نهاية الحرب العالمية الاولى ثم إعلان جمهورية فايمَر (1919–1933) لم يقودا الى نهوضٍ جديد للديمقراطية[41].

هذا التأخر الكبير لِنشوء الدولة– الامة وهشاشة التقاليد الديمقراطية والتخلّف الاقتصادي في ألمانيا مقارنةً بدول أوروبا الغربية، يُفسِّرهُ لوكاش بوجود أسبابٍ مادية في المقام الاول ولكنها أسهمتْ بدورها في تحديد بعض الخصائص الأيديولوجية المتعلقة بتاريخ ألمانيا وخصوصيتها. فمن جانب كانت التبعية المجتمعية للأمراء ثم الملك وبيروقراطيتهِ لاحقاً هي الأكثر وثاقةً والأكثر إنتشاراً على الصعيد المجتمعي. مما ترك هامشاً ضئيلاً للغاية لوجود معارضة سياسية فاعلة أو حتى لِمجرّد موقفٍ نقدي. ومن جانبٍ ثانٍ عملت اللوثرية وعقيدتها التزهدية Asceticism على تضييق ما هو ضيّقٌ أصلاً، وذلك بتحويل التبعية السياسية والمجتمعية الى خضوعٍ روحي عبر إنماء روحية العبودية عند الألمان والتي أطلق عليها فردريك أنجلز لاحقاً تسمية "سيكولوجيا الخادِم الفَرَّاش"[42]. وفي هذا الشأن، فإنَّ ما يُميِّزُ ألمانيا هو أنَّ التيار الديني والأيديولوجي الانتقالي بين العصر الوسيط والعصر الحديث يَغلِبُ بقوة على النحو الأكثر تأخراً إجتماعياً مقارنةً مع تيار العلمانية. فعلى الرغم من "إنَّ مَولِدَ الإصلاح البروتستانتي ومَولِدَ الرأسمالية هما على ترابطٍ وثيق، الا أنَّ الإصلاح الكالفيني في الغرب كان رايةً للثورات البرجوازية الكبرى الأُولى، أي ثورات هولندا وإنجلترا. لقد أعطى ذلك للحقبة الأُولى من الصعود الرأسمالي أيديولوجيتها". بينما في ألمانيا، نجد أنَّ اللوثرية ما أنْ إنتصرتْ حتى سَعتْ الى تبرير الخضوع لإستبدادية الإمارات الصغيرة وإلباسها لَبوسها الديني التنكري، مُعطيةً بذلك خلفيةً فلسفية وأساساً أخلاقياً لتأخّر نشوء الدولة والصُعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[43]. مما أفضى الى تقليص المجال المُتاح للروح النقدية تقليصاً كبيراً. بحيث لم يكنْ بوسع الالمان أنْ يُشارِكوا في

---

[41] جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، ترجمة د. نايف بلّوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط4، 2006، ص ص 93–94.

[42] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص36.

[43] للمزيد من التفاصيل حول أثر هذين العاملَين السياسي والديني أنظر المصدر نفسه، ص ص 35–36.

تحركاتٍ ثورية برجوازية تنحو الى إستبدال المَلكية المطلقة وجعلها أكثر تلاؤماً مع التطور الرأسمالي الحديث، وهذه المرحلة هي نفسها المرحلة التي لم تحقق فيها ألمانيا بَعْد وحدتها السياسة حتى العام 1871. فقد كانت مصالح القوى الاوروبية الكبرى ونزاعاتها هي التي تعمل على تشرذم الإمارات الالمانية الصغيرة، وتُبقيها على قيد الحياة بشكل مُصطنع، ولا تستطيع العمل الا كمرتزقة لصالح هذه الدولة أو تلك. "وهي إذ تقتدي بأسيادها، لا تستمر في الحياة الا بإستثمارها بلا رادع ولا تَحفُّظ لِشعبِ الكادحين"[44].

2.غياب البُنية الديمقراطية:

وفقاً الى لوكاش، عمدت الشعوب الاوربية للإنتظام في دول – أممٍ Nation–States منذ مطلع العصر الحديث، بحيث أحَّلَتْ إقليماً قومياً موحَّداً محَّل التجزؤ الاقطاعي. "ففي تاريخ نمو الطبقة البرجوازية وفي نضالها ضد الاقطاع، ظهرت المَلكية المطلقة في كلِّ مكان ولفترةٍ معينة في أوروبا، لتكون الأداة التنفيذية لهذا التوحيد. والحال في الحقبة الانتقالية هذه، إتَّبعَتْ ألمانيا دَرباً معاكساً"[45]. ففي اللحظة التي كانت فيها أوروبا الغربية تَلِجُ بحزم طريق الرأسمالية، وتُعطي المجتمع البرجوازي أساساً إقتصادياً وتُسهِّلُ عملية تبلور أيديولوجية هذا المجتمع، كانت ألمانيا تحافظ على كل ما هو بائس في أشكال الانتقال بين العصور الوسطى والعصر الحديث [أي التبعية السياسية والعبودية الروحية]. هذه الرجعية تزداد خطورة بفعل بعض الشرائح الاجتماعية ذات الصلة بهذه الحقبة الانتقالية (أي المحافظين): إذ أنَّ تحوّل الإمارات الإقطاعية القديمة الى دولٍ إطلاقية Absolutists صغيرة الحجم، ليس لها الوجه التقدّمي– التحديثي للحكم المطلق، الذي يُساعد بدورهِ البرجوازيةَ على الرسوخ، كذلك إستغلال الفلاحين بقسوة بالغة قد ولَّدَ جيشاً من المشرَّدين والعناصر المُقتلَعة الجذور إجتماعياً، وعلى النحو الذي شهدتهُ بقية الدول الغربية حين التراكم الاولي لرأس المال. ولكن لعدم تطور الرأسمالية آنئذٍ من حيث عدم وجود المَشاغِل والمعامل في المدن الألمانية، فأنَّ هذه الكتل البشرية تحولتْ بمرور الزمن الى فلاحين مُعدَمين وجنود وقُطَّاع الطرق[46]. وبالمحصلة، حين دخلتِ الطورَ الامبريالي

---

[44] للمزيد من التفاصيل حول تاريخ تلك الإمارات وسياساتها أنظر المصدر نفسه، ص ص 36–40. أنظر أيضاً د. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815–1919)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000، ص ص 157–158، 164.

[45] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص 34.

[46] إنَّ المانيا في نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث كانت تمتلك مناجماً وصناعةً وتجارة تتنامى بقوة، ولكن على نحوٍ أقل سرعة بكثير مقارنةً بمثيلاتها في انجلترا وفرنسا وهولندا. حيث أنَّ العناصر غير المؤاتية للتطور السياسي في المانيا كانت تتمثَّل في أنَّ مختلف الولايات الاقليمية والوحدات الإدارية لألمانيا كانت أقل توحيداً وإندماجاً بكثير على يد المصالح الاقتصادية المشتركة مما كانت عليه أقاليم الدول الغربية الكبرى. فمثلاً إنَّ المصالح الاقتصادية للمدن شمالي المانيا مجتمعةً

أواخر القرن 18 وبعد أنْ شهدت نمواً اقتصادياً وتَركُّزاً للرأسمال بالغ التقدم، صارتْ ألمانيا حينئذٍ الدولة الإمبريالية الأكثر عدوانيةً والأشّد إستعجالاً لإعادة توزيع العالم ورسم دوائر النفوذ الاستعماري، غير أنَّهُ حين بَلغَتْ ألمانيا مرتبة القوة الرأسمالية الكبرى كانَ إقتسام العالم يَصِلُ الى نهايتهِ، ولم يعد بإمكان ألمانيا الامبريالية إمتلاك امبراطورية كولونيالية على قَدر أهميتها الاقتصادية الا بطريق العدوان وانتزاع المستعمرات من الآخرين. "لهذا السبب وُلِدتْ في ألمانيا إمبريالية تتميَّز بكونها جائعة، عدوانية، مُتعطشة الى الفتوحات، مُستعجِلة لإعادة توزيع المستعمرات ومناطق النفوذ، كما تبدو لها جميع الوسائل صالحة لبلوغ ذلك"[47].

هنا يُلاحِظُ لوكاش وجود تناقضٍ واضح بين الوضع الاقتصادي وبين غياب النضج الديمقراطي والسياسي. بحيث أنَّ الافتقار الى هذا النُضج قد أفضى الى عواقب أيديولوجية هامّة ناهيك عن نزاعاتٍ خارجية كبيرة. فلما كان قيام تقدّمٍ ديمقراطي في ألمانيا للأسباب التي عَرضها لوكاش تقدّماً مستحيلاً، كان لابدَّ من حصول حركة تراجعٍ داخلية سياسية وأيديولوجية تجاه المحيط الدولي، وحركة التراجع هذه تجسدتْ في مُناهضة الديمقراطية على نطاقٍ واسع للغاية. وبالتالي، فليس من قبيل الصدفة بتاتاً أنْ تظهر في البلدان الديمقراطية وغير الديمقراطية حركة نقدٍ واسعة للديمقراطية، بحيث تَمتَّد من الأوساط الرجعية حتى التنظيمات العمّالية واليسارية بعامة[48]. وربَّما قصد لوكاش بذلك مناهضة عوام الألمان للديمقراطية النخبوية ونظامها الانتخابي تحديداً، ذلك أنَّ ألمانيا حتى العام 1919 كان حق التصويت بموجب نظامها الانتخابي لايزال حقَّاً خاصاً بالطبقة الارستقراطية وكبار الملّاك تبعاً لِمعيار دفع الضرائب، مما دفع العامّة وبتأثير نتائج الحرب العالمية الأولى للمطالبة بتغيير هذا النظام جذرياً والانتقال بحق التصويت الخاص الى حق التصويت العام للمواطنين البالغين كافّة. وهو ما استغلَّهُ الفاشيون بمهارةٍ وبراغماتية عالية. ويقول في ذلك باكستون أنَّهُ: "على عكس المحافظين والليبراليين الحذرين، لم يرغب الفاشيون أبداً أنْ يضعوا العوام بعيداً عن السياسة. فقد أرادوا تجنيدهم وضبطهم وتعبئتهم. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، لم يكن محتملاً العودة الى حقِّ انتخاب ضيِّق. فقد أُستُدعي الشبّان الألمان من كل مكان للموت في سبيل وطنهم، ولا يُمكن لأيٍّ كان إنكارَ شمولهم بحقوق المواطنة التامّة. والنساء أيضاً، اللاتي مدَّدت الحربُ أدوارهنَّ الاقتصادية والاجتماعية على نحوٍ

لم يكن لها من قواسم مشتركة مع مصالح المدن التجارية في جنوبي ووسط المانيا. وفي مثل هذه الظروف، فإنَّ تحول الطرق التجارية الكبرى بعد اكتشاف الأمريكتَين وطريق الهند البحري، قد ألغَتْ وضعية الترانزيت الى غرب أوروبا عبر المانيا، مما ترتَّبتْ عليه نتائج إقتصادية وخيمة. للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 34-35. أنظر أيضاً د. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815-1919)، مصدر سابق، ص ص 157،164، 199-201.

[47] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص54.

[48] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 55، 58-60، 63-66.

هائل، قد حظينَ بحق التصويت في كثير من دول أوروبا الشمالية... وبينما سعى الفاشيون الى إحياء النظام الأبوي في العائلة ومكان العمل، فقد فضَّلوا استنهاض النساء عوض حرمانهم من حقِّ التصويت، حتى يتمكَّنوا [لاحقاً] على الاقل من إلغاء التصويت برمَّتهِ"[49].

3. ضعف اليساريين والليبراليين الألمان:

إنَّ ضعف اليسار الالماني بعد ثورة 1848 يتجسّد في عدم قدرة الحركة العمّالية الالمانية بأنْ تتحوَّل الى مكانٍ لِتجمُّع وإستقطاب القوى الديمقراطية واليسارية بصورة عامة، فقد كانت الأخيرة مشتّتة القدرات وتَظهر في مناطق متفرِّقة من ألمانيا. وكانت هناك عدِّة أسباب وراء هذا التشظي وعلى النحو أدناه:

أ- إنقسام القيادات العمّالية الى إتجاهَين رئيسيَن: أولهما يؤيد النظام السياسي ونموذج الدولة التسلّطية وفقاً للنموذج البسماركي-البونابرتي، من أجل تحقيق الوحدة الالمانية ثم الحفاظ على استمراريتها. هذا الإتجاه تمثَّلَ في رؤية اليساري **فيرديناند لاسال Ferdinand Lassalle** وأنصارهِ[50]، أمّا الإتجاه الثاني المعارض للأول فكرياً فكان يقودهُ **فيلهَلم ليبْكِنشت Wilhelm Liebknecht**، ويُشدِّد على ضرورة تبني الديمقراطية والليبرالية بصورة تدريجية في عملية توحيد الدولة الألمانية وبناء مؤسساتها السياسية وغير السياسية[51]. وفي ظلِّ هذا الانقسام، تبنَّتْ حكومة بسمارك خلال السنوات الأُولى للدولة الألمانية، مجموعة سياسات إصلاحية ساعدت بفاعلية على سَحْبِ البِساط تماماً من تحت أقدام الإشتراكيين الألمان منذ العام 1871. حيث بادَرتِ

---

[49] للمزيد من التفاصيل حول طبيعة النظام الانتخابي في ألمانيا قبل العام 1919، أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 85-86، 144-148. أنظر أيضاً د. نورالدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية: يقضة القوميات الاوروبية (الوحدات القومية)، ج3، مصدر سابق، ص ص 114- 117.

[50] وإذا ما قارنّا بين كارل ماركس و فيرديناند لاسال (1822 - 1862) لوجدنا أنَّه بالرغم من كون لاسال ينتمي الى الهوية القومية ذاتها، ووليد الطبقة البرجوازية عينها، وشكّلتهُ تقاليد ثقافية ذات تماثلٍ وثيق، وكيَّفتهُ التجارب الثورية لِعام 1848 وإيديولوجية الديمقراطية البرجوازية على نحوٍ مشابه، الا أنَّهُ إختلَفَ عن ماركس في وجوهٍ عدة. فقد كان ماركس منفياً ولم يكنْ لاسال منفياً. ولم يقطعْ لاسال صِلَتهُ ببلادهِ أو ببقية الطبقات غير طبقة البروليتاريا على نحو ما فعلهُ ماركس. ولم يكنْ لديهِ إعتراض على التعاون مع الدولة القائمة. ولم يعترضْ أيضاً على الإتصال الشخصي ببسمارك. "وإنَّ مثل هذه الأُمور مهمة، وربّما يكون أكثر أهميةً من أعمق الفروقات العقيدية، فهي مهمة بما يكفي لإنتاج أنواعٍ مختلفة من الإشتراكية، ونزاعاتٍ لا تسوية لها". أنظر جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، ترجمة حيدر الحاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، آذار 2011، ص ص 586 - 587.

[51] للمزيد من التفاصيل أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص ص 53-54. وحول أسباب هذه الإنقسامات الفكرية أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج4، مصدر سابق، ص ص 99-100.

الحكومة الى إتخاذِ التدابير اللازمة لِتحسين الواقع الإجتماعي، عبر إصدار قانون الضمان الإجتماعي ومن منظور المحافظين أنفسهم. و"الغلطة المميتة"، وفقاً الى لوكاش، والتي إرتكبها بسمارك بحيث أضعفَتِ المشروع اليساري وأنصارهِ بعامة، كانت قد تجسّدت في قمعهِ للنشاطات الإشتراكية عن طريق الإكراه[52].

ب- يُركِّزُ لوكاش أيضاً على سببٍ آخر يتمثَّل في عدم إمتلاك اليسار الالماني لأيِّ مشروعٍ بديل، لِيستطيع بواسطتهِ مواجهةَ المشروع العنصري للنازية. ويقول في ذلك: "لو كان ثمّةَ مَنْ يمتلك الشجاعة لَكانَ قد إستخدم الوسائل الممكنة وجابَهَ الحركة الاشتراكية القومية (النازية)، وأمَّم المعامل الكبيرة تأميماً إشتراكياً. وبذلك كانت الحركة الاشتراكية القومية قد ترنَّحتْ، وكان من الممكن القضاء عليها بدون شك لو أُريد ذلك. ولكن لم يكنْ هناك من امرئٍ يستطيع أنْ يُريدَ ذلك.... فالفاشية قد إنتصرت أيضاً بإستغلال هذه التردّدات، وهذا التراخي والجُبن"[53]. ومع ذلك، يذهب كاتب السطور الى أنَّ تفسير هذا التردد السياسي للألمان يتجاوز أصلاً موضوع "الجُبن والتراخي"، لسببٍ مركزي لا يتعلَّق فقط بضعف البديل السياسي والايديولوجي للإشتراكيين الألمان وعدم قدرتهِ على إتخاذ الإجراءات الكفيلة بنقل المجتمع الرأسمالي صوب الإشتراكية، بل ربَّما أنَّ تراخي الألمان تولَّد أيضاً بفعل انتهاجِ النازية نفسها لإستراتيجية مدروسة بعناية ضد الاشتراكيين بعامة، ومن أهم ملامحهِا التي ربَّما فاتَ جورج لوكاش تبيانها المَلْمَحان الآتيان:

الأول- تجاوز دائرة الطبقة الواحدة والتحول الى حزب جماهيري: كانت الفاشية ستظلُّ مجرد جماعة ضغط متكوِّنة من قُدامى المحاربين ورفاقهم الأصغر سنَّاً لو لم تتوجَّه الى تجنيد الشرائح الاجتماعية الاخرى. فعلى عكس أحزاب المحافظين والليبراليين التي تبنَّت خطابات نظرية وملائمة لِشريحة صغيرة من المتعلمين ودون أنْ تتواصل مع انصارها الا وقت الانتخابات، عَمَدَ الحزب النازي الى تبني تقنيات انتخابية جديدة ومُطالبات موجَّهة الى أطياف اجتماعية كثيرة خارج دائرة المؤيدين التقليديين. فقد عَرَفَ هتلر كيفية إثارة احقاد عوام الالمان ومخاوفهم، عبر الاجتماعات العامة والخُطب الحماسية، كذلك اللجوء الى ترهيب خصومهِ الشيوعيين بخاصة. أما الأحزاب التقليدية بما فيها الحزب الشيوعي الألماني فقد كانت معنيةً بمصلحة واحدة وطبقةٍ

---

[52] فالذين عملوا على صياغة القانون وتطويرهِ ثم تكييفهِ مع واقع المجتمع كانوا أصلاً موظفين محافظين في الخدمة المدنية، مثل: فون بيرلبيتش Von Berlepsch وكونت بوسادوفسكي Count Posadowsky. ثم تطور ذلك بصدور تشريعٍ آخر في العام 1878 وظلَّ ساريَ المفعول حتى عام 1890، غير أنَّ الإمبراطور وليام الثاني أصَرَّ على إلغائهِ، بغية الحؤول دون إضطهاد الإشتراكيين، ومن ثمَّ تدشين تشريعاتٍ أُخرى يُساعِدُ في إحداث تغييراتٍ إجتماعية كبيرة. وللمزيد من التفاصيل أنظر جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، مصدر سابق، ص ص 633-635، 637.

[53] جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق، ص 94.

واحدة أو منهجية سياسية واحدة. وفي المقابل قدَّمتِ النازية وعودها لجميع الشرائح والطبقات الاجتماعية لاسيّما الطبقة الوسطى "عبر مُناشدات مُخصَّصة لكلِّ واحدةٍ منها، غير آبهةٍ جداً اذا ما تناقضت الواحدة منها مع الاخرى". وهو ما قادَ الحزب النازي عام 1932 وبصورةٍ تدريجية ليحصد (107) مقاعد من مجموع (491) مقعداً برلمانياً[54].

الثاني- "شَيطنة" الخطر الشيوعي: فقد اندمج اليساريون عامةً في النظام السياسي سيّما بعد العام 1918، غير أنَّ أنَّهم في ألمانيا وحتى الدول الإسكندنافية وبريطانيا أصبحوا يُواجِهونَ أمراً واقعاً وهو: "أنَّ هناك نظاماً إجتماعاً وإقتصادياً لا يعمل الإ على الخطوط الرأسمالية. ويمكن للإشتراكيين أنْ يضبِطوهُ، ويُنظِّموهُ لِصالح العملاء... غير أنَّهم كانوا عاجزين عن فعلِ أيِّ شيئٍ إشتراكي، وإذا كانوا يريدون إدارتهُ فَعليهم إدارَتَهُ وفقاً لِمنطِقِهِ وماهيّتِهِ. فكانَ عليهم بالنتيجة أنْ "يُديروا الرأسمالية"... أي كان عليهم أنْ يَفعلوا ما كان سيفعلهُ الليبراليون أو المحافظون في الظروف ذاتها" وفقاً الى جوزيف شومبيتر[55].

ومن ثمَّ، لعلَّ الدافع المركزي وراء قبول الإشتراكيين فكرة الإنخراط في السلطة السياسية في ظلِّ ظروف الخراب الإقتصادي والإجتماعي، هو محاولة تثبيت أقدامهم في دوائر صناعة القرار السياسي، لكي يغدوا قادرين تدريجياً على تعزيز مركز البروليتاريا وتشريع القوانين لِصالح العمّال، على النحو الذي سيقود المجتمع الى الإشتراكية بصورةٍ سلمية دون اعتماد العنف[56]. وفي المقابل، أدرك النازيون بكون طبقة البروليتارية مَنيعة أيديولوجياً أمام النظرية الفاشية ونزعتها القومية والعرقية، نظراً لإنخراط العمال وبصورة عميقة في ثقافة الاشتراكية وتنظيماتها النقابية ووسائل إعلامها. ومن ثمَّ كان من اللازم "شَيطنة" الشيوعيين واظهارهم بمظهر "العدو الداخلي" بهدف إضعافهم في نهاية المطاف، وخاصة أنَّ اليسار الألماني بشكلٍ عام لم يعد صبوراً لتجميع تياراته المتشظية وانتظار لحظتهِ التاريخية، كما كان حالهُ قبل العام 1914. فقد أخَذَ "يُهدِّدُ بالزحف

---

[54] للمزيد من التفاصيل روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 98، 124- 125، 169.

[55] جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، مصدر سابق، ص 672

[56] هذا الوضع التاريخي قد تكرَّر بعينهِ بعد الحرب العالمية الثانية، فقد إنتهج الإشتراكيون الأوروبيون بعامة نهجهم السلمي مجدداً في إدارة النظام الرأسمالي ليس الإ، فقد قام نَهجهم على أساس إمكانية السيطرة على البُنية البرجوازية من دون التدمير الرسمي للإطارِ القانوني للنظام الرأسمالي وبواسطة سُبُلٍ غير ثورية مثل: الضريبة، وخُطط الأُجور، والمساواة في المداخيل. ففي بريطانيا على سبيل المثال، نجد أنَّ حزب العمّال البريطاني لم تتجاوز أعمالهُ ومشاريعهُ هامشَ إدارة النظام الرأسمالي. فمثلاً كان تأميم بنك إنجلترا عام 1947 رمزاً ذا مغزى كبير، غير أنَّ أهميتهُ سَاوَتِ الصفر من الناحية العملية. لأنَّ البنك كان أصلاً دائرة رسمية تابعة لوزارة الخزينة البريطانية منذ عام 1914. للمزيد من التفاصيل أنظر تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 671-673، 684- 699،701، 754-755.

حول العالم على رأس ثورةٍ بلشفية لا يمكن مقاومتها. ثم إنَّ الرعب الذي شلَّ الطبقات الوسطى والعُليا جميعاً بظفر لينين في روسيا، والنجاح المتوقع لأتباعهِ في ألمانيا الصناعية، أمرٌ مهم لِفَهم البحث المذعور ما بين عامَي (1918 –1922) عن نوعٍ جديد من التجاوب مع البلشفية"، وفقاً الى باكستون، وكان هذا التجاوب مُتمثِّلاً في الفاشية بعينها[57]. ففي الوقت الذي شدَّدت فيه الشيوعية على كون "الديمقراطيين الاجتماعيين" غير مؤهلين للتعامل مع مشكلات الدولة التي تَتطلَّبُ حلولاً ثورية وجذرية، سَعَتِ النازية في الوقت عينهِ لتصوير نفسها على أنَّها قوة فعَّالة في مواجهة اليساريين عامةً. بحيث لم تكنْ ممارسة العنف تجاه الشيوعيين عبر ميليشيات النازية ممارسةً عشوائية، بل كانت هادفةً الى إظهار "أنَّ الفاشيين وحدهم أقوياء بما فيهِ الكفاية لحفظ الشعب من الارهابيين غير القوميين"، وبُغية اقناع المحافظين والطبقة الوسطى للتسامح مع العنف الفاشي وأنّهُ ضرورة ملِّحة لِمواجهة اليساريين. وهو ما تحقق فعلياً، وذلك بعدم خوف الكثير من الألمان واطمئنانهم تجاه العنف والترويع النازي ضد الشيوعيين واليهود بوصفهم "يَستحِّقون ذلك" لِكونهم "أعداء الشعب"[58].

من جهةٍ أُخرى، يُشدِّدُ لوكاش على كون الليبراليين أيضاً وتنظيماتهم السياسية لم يكونوا بأحسن حالٍ من اليساريين الألمان وتنظيماتهم. اذ أنَّ التكتيك الأساسي لليبراليين الألمان هو عين تكتيكهم المُنتَهج ضد بسمارك وأنصارهِ لاحقاً وهو: "تراجع– إذعان– مساومة". وهي سياسة غير واقعية للتعامل مع الفاشية، بحيث تمثَّلُ هدفها اللاواقعي في ترويض الفاشية عبر مسار التفاوض والمساومات، وجعل الفاشية "متمدِّنة". أي جعلها مقبولة من لدن البرجوازية الليبرالية. في حين أنَّ الفاشية أصلاً تعني "البربرية ومحاولة نَشر البربرية في أرجاء ألمانيا بدون استثناء"[59]. ومما أضاف المزيد من الضعف الى اليسار الاشتراكي والليبرالية الألمانية معاً، من منظور لوكاش، هو إعتقادهُ بإنعزالية المثقّف الالماني بصورةٍ عامة عن المجتمع، وتحوُّلهِ الى مثقفٍ كلاسيكي وليس مثقفاً عضوياً بحسب مفردات أنطونيو غرامشي. ويرجع ذلك في جوهرهِ الى "التقسيم الرأسمالي للعمل، الذي يجعل عمل المثقفين تخصصياً الى أقصى حد ومن ثمَّ يجعلهُ خاضعاً مادياً وروحياً للمنظمات السائدة الحكومية منها والاقتصادية والاجتماعية". وينجم عن هذا الخضوع المادي والروحي أنَّ قسماً ملحوظاً من المثقفين يَرْتَمون طوعاً تحت جناح الأيديولوجية السائدة. بحيث لا يَدخلُ المثقف وأنشطتهِ في تماسٍ مباشر مع حياة عامّة الناس. وفي هذه الوضعية الانعزالية سيقفُ المثقفون بشكلٍ عام موقفاً سلبياً

---

[57] المصدر نفسه، ص ص 86– 87.

[58] للمزيد من التفاصيل حول الانقسامات السياسية بين المحافظين والشيوعيين والليبراليين الألمان أنظر المصدر نفسه، ص ص 151– 155.

[59] جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق ، ص ص 94–95.

ولا يُبدون مقاومةً جديرة بالذكر لأيديولوجية "الفئة السائدة الرَجعية، التي تُعادي الشعب وتُرهِبهُ"[60]. مما أتاحَ السبيل أمام الفاشية لِمَلئ هذا الفراغ والإنقطاع الثقافي بين عامّة الناس ونُخبتهم الفكرية والسياسية، عبر الاحتكاك المباشر وتعبئتهم فكرياً وفقاً لمعتقداتها العرقية. وما يؤكِّدُ ذلك، ووفقاً الى شومبيتر، أنَّ موقف الإشتراكيين الألمان بعامة لم يتجاوز "الموقف السلبي المَحَّض تجاه الإصلاح اللاإشتراكي وتجاه كل أعمال الدولة البرجوازية– والذي هو... المبدأ التكتيكي الذي أوصى بهِ ماركس لكلِّ شيئ ما خلا الحالات الإستثنائية– طعنةً لهُ"، أي طعنةً لأي برنامج إصلاحي غير إشتراكي تتبناهُ الدولة ومؤسساتها الليبرالية[61].

4. بُنية اليأس الفكري وأزمة النظام الرأسمالي:

إنَّ كلَّ ما تقدَّمَ ذكرهُ من عوامل، وفقاً الى لوكاش، أسهمَت في توليد "قابلية التأثر بفلسفة اليأس [والاحباط] الفكري لدى الألمان. وإنَّ ما يُميِّزُ الحالة الروحية الجديدة عن الاتجاهات المُشابِهة الأقدم منها هو مفعول الوضع الالماني ما بين الحربَين العالميتَين. فالفارق الأبرز بين حقبة ما قبل العام 1914 وما بعدهُ كان بلا ريب هو الإهتزاز القوي، ثم لاحقاً الضياع الكامل تقريباً لِشعور **الطمأنينة** الاجتماعية منها والفردية لدى الطبقات الوسطى بالدرجةِ الاولى عند المثقفين[62]. فالإنقسامات الفكرية في ألمانيا خلال القرنين 18 و19 كانت تدور في عالم الفكر والمثالية لا عالمَ الواقع بخلاف الحال في فرنسا مثلاً. ففي ألمانيا نشأ خلال القرن 18 جَدلٌ عنيف حول الإنسان ومَركزهِ في العالم الطبيعي ما بين خُلفاء **غوتفريد فيلهَلم ليبِنتز** Gottfried Wilhelm von Leibniz (1646–1716) وبين أنصار **عمانوئيل كانت** (1804–1724). ولكن مع فارقٍ واحد هو أنَّ فرنسا وفي ظل (النظام القديم)، "كان الجَدل فيها قد إتَّخذ وجهةً إجتماعية وسياسية. أما في ألمانيا فقد ظلَّ الجدل على صعيد الفلسفة الرفيعة وكان قد عُنيَ بعمليات الإدراك أكثر بكثير مما عُنيَ بأسباب العمل والدوافع اليهِ". ولعلَّ تفسير ذلك نجدهُ لدى جورج كول، وهو أنَّهُ "لم تكنْ لألمانيا، إذا قورِنَتْ بِفرنسا، طبقةً رأسمالية قوية ولا بروليتاريا في حالٍ من الإهتياج والثَوَران. كانت الفلسفة الألمانية، كما أشار ماركس وأنجلز في كتاب "الأيديولوجية الألمانية"، تُدَنْدِنُ في خَواءٍ Vacuum إجتماعي وإقتصادي، وكانت قد شَغَلَتْ نفسها بالفِكرات أكثر مما شَغَلَتْ نفسها بالحقائق المادية. وحتى حينما إتَّجَهتْ، عند فيختَه وهيغل بخاصة، نحو التفكير السياسي فإنَّها قد واجهت الموضوعَ من زاوية التأمل المثالي لا من زاوية رجل السياسة

---

[60] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 92–93.

[61] للمزيد من التفاصيل أنظر جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، مصدر سابق، ص ص 640–641.

[62] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص66.

العَمَلي، أو المُبْتَدِع الإجتماعي الذي يَضَعُ نُصْبَ عَينَيهِ رجلَ الشارعِ وشواغلهِ الإقتصادية والإجتماعية المباشِرة"[63].

ومن ثمَّ، يمكن القول مع لوكاش بأنَّهُ قُبَيل العام 1914 كان المَرء الالماني بعامة مُتشائِماً من حيث عدم إيمانهِ بمستقبل الحضارة، وذلك بتأثير روافد بيئتهِ الفكرية المتلاحقة، بَيدَ أنَّ هذا الوضع ظلَّ مُحتفِظاً بطابعٍ نظري تأملي ولا صلة لهُ بأيِّ عملٍ ممكن لتغيير ذلك. بحكم شعور كل فرد تقريباً بأنَّ وجودهُ المادي والاجتماعي كما وجودهُ الفكري والشخصي مؤمَّنَان تماماً، لذا، فإنَّ المواقف الفلسفية المتشائمة منها والمتفائلة كان من المُحتمل أنْ تبقى محض نظرية ولا تؤثر في سلوك الافراد وأخلاقهم. ولكن مع زوال عنصر "الأمن" في عالمٍ أمسى الوجود المادي والمعنوي فيه بات مُهدَّداً يومياً، فقد إتخذ التشاؤم اللاعقلاني معنىً ملموساً وبشكلٍ أكثر انتشاراً. ولا يعني جورج لوكاش بذلك كون الفلسفة أخذتْ تُترجَم مباشرةً الى أفعالٍ وممارسات، بل يقصد أنَّ الفلسفة "وجدت مصدرها الفكري في الخطر الذي كان يُهدِّدُ وجود كل واحد، وليس مجرد تأمل حالة موضوعية للثقافة"[64]. وقد تجسَّد هذا الخطر في الحرب العالمية الأولى نفسها، فهي "أصل أيَّ شيئٍ آخر عنيف وغاضب في عالم ما بعد الحرب، من البلشفية حتى الرسم التعبيري... إنَّ الحرب العظمى تكفي لوحدها تفسير الفاشية والبلشفية معاً. فأربع سنوات من المذابح، لم تترك من تراث أوروبا الأصلي غير القليل، ولم تدع شيئاً من مستقبلها واضحاً". فقد أفرزت الشعور العام بالهزيمة والإحباط وبخاصة لدى الآلاف من المحاربين القُدامى الباحثين عن سُبلٍ عنفية وجديدة للتعبير عن غضبهم وخيبة أملهم، كما تولَّدت أزمات اجتماعية حادة نتيجة تفكيك اقتصاديات الحرب الاولى بسرعة، ثم موجات الهجرة من الريف الى المدينة،

---

[63] ج. د. هـ. كول، روَّاد الفكر الإشتراكي، مصدر سابق، ص ص 325، 326. وفي السياق نفسهِ، يمكن القول بكون غالبية المفكِّرين والمثقفين الغربيين الى جانب إنقساماتهم الفكرية في عالم الفكر والمثالية، كانو أصلاً يواجهون الأفكار السياسية وأنماط الحياة القادِمة من البيئات الثقافية الشرقية إبّان القرنَين 17 و18 بعامة، بحيث أنَّهم إهتَّموا بِتوظيف تلك الأفكار وأنماط الحياة بخاصة في خَلق أنظمةٍ سياسية مَلَكيةٍ مركزية أكثر قوةً: كما فَعَلَ الفيلسوف الألماني **ليبنتز** الذي وَجَدَ في نموذج الصين مصدراً للإلهام، بما فيها من وحدةٍ ثقافية وجهاز عقلاني للخدمة الوطنية. كذلك **مونتسكيو** الذي تأثَّرَ بالمثال الفارسي على سبيل المثال. ووفقاً لتعبير ديفيد غريبر: "إنسَحَر آخرون، مثل **جون لوك** أو كثيرون غيره من فلاسفة السياسة من الإنجليز الذين وَلَعَ بِحُبِّهم **الآباء المؤسِّسون** للولايات المتحدة الأمريكية، بإكتشاف مجتمعاتٍ في أمريكا الشمالية بَدا أنَّها أكثر حرصاً على المساواة، وأكثرُ فردانيةً من أيِّ شيئٍ سبق أنْ تَخيَّلَ الأوروبيون إمكانيةَ وجودهِ". للمزيد من التفاصيل أنظر ديفيد غريبر، مشروع الديمقراطية: التاريخ الأزمة الحركة، ترجمة أُسامة الغَزولي، سلسلة عالم المعرفة، العدد(418)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 2014، ص ص 176–177.

[64] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص66.

والبطالة المستفحلة التي شملت زهاء 25% من السكان في ظل أزمة الكساد العظيم عام 1929، وبالمحصلة خَرَجَ التضخم الاقتصادي عن سيطرة الدولة ومؤسساتها[65].

هذا اليأس الفكري والتشاؤم العام، عملت النازية على نَقلهِ الى الأوساط الشعبية والسياسية عن طريق إنتهاج أفكار نيتشه وهايدِغر، حيث جرى العزف على أوتار اليأس لِيتولَّدَ عنه: سرعة التصديق، وإنتظار المعجزة التي كانت الجماهير تعيش عليه، ويعيش عليه ايضاً المثقفون الأكثر ثقافة[66]. فقد جرى تسويق منظور نيتشه الى "رَجُلِهِ الخارق Superman" باعتبارهِ "روحاً حرة" علمانية ويتمتَّع لوحدهِ بالقدرات الطبيعية اللازمة لتخليص المجتمع من أزماتهِ الاقتصادية والاجتماعية، ثم قيادتهِ نحو بناء دولةٍ موحَّدة وأُمة مُتماسكة. فأسهمت هذه النتاجات الفكرية وأمثالها في خلق أرضيةٍ فكرية وسياسية مؤاتية بين عامَي (1900– 1925) لِولادة الحركة النازية، ثم الدفع بمعتقداتها نحو إمكانية قيام "القائد" و"النخبة المختارة والنقية" بتطهير الشعب والدولة معاً. بعبارةٍ أُخرى، إنَّ النازية الألمانية لم تتولّد من العدم، فهي لم تخلق أساطير ورموز خاصة بخطابها الفكري والسياسي، بل اختارتها من صميم موروثها القومي وبما ينسجم مع أهدافها واستراتيجيتها. فالفاشيات بعامة تتوخّى في كلِّ ثقافة قومية الافكارَ والرموزَ القادرة على تجييش حركة الجماهير، بدواعي التجديد والاندماج والنقاء العرقي، بحيث تُوظِّف كلَّ ذلك بالضدِّ من الليبرالية والشيوعية خاصة[67]. وتفسير ذلك لدى لوكاش هو "أنَّ عهود التصديق الكبرى والتطيُّر وانتظار المعجزات لا تتطابق بالضرورة مع إنحدار الحضارة، بل على العكس تماماً. فهذه الاتجاهات برزت منذ نهاية العصر القديم، وفي ألْمَعِ لحظةٍ للحضارة الإغريقية وكذلك حين بَلَغتِ الدولة الإسكندرية توسعها الأكبر. في ذلك الزمن، ليس فقط العبيد المحرومون من الثقافة والحِرفيون الصغار الذين كانوا ناشرين للمسيحية قد استقبلوا بسهولةٍ كبيرة الإيمان بالعجائب والمعجزات، بل أيضاً العلماء الأكثر ثقافةً والفنَّانون الأشَّد موهبةً... والعصر الوسيط أيضاً يُقدِّمُ مثالاً أكثر دلالة. فالإزدهار الأكبر للسِحر [والشعوذة] لا يتطابق بتاتاً مع الحقبة الأكثر ضلاماً في هذا العصر، بل جاء مع أزمة الانتقال الكبرى بين العصر الوسيط والأزمنة الحديثة، أي حقبة غاليلو وكيبلر... هذه العهود من الهَذيان الاجتماعي والتطيُّر المدفوع الى أقصاه والإيمان بالمعجزات لها سمة مشتركة: أنَّها دائماً الحِقب التي يَنحدر فيها نظامٌ اجتماعي قديم وثقافة عُمرها قرون بينما يقتربُ عالمٌ جديد من نهايةِ تكوُّنهِ الجَنيني"[68].

---

[65] للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 60–63، 127.

[66] للمزيد من التفاصيل أنظر جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق، ص ص 66–67.

[67] للمزيد من التفاصيل أنظر وقارن مع روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص 67–69، 76– 77، 79.

[68] المصدر نفسه، ص 69.

مما يُشيرُ الى أنَّ إحدى المَهام الاجتماعية التي تُؤديها اللاعقلانية لصالح البرجوازية الرجعية، هي كونها تُقدِّمُ للإنسان "راحةً" نفسية وميتافيزيقية موصولة بِوَهمٍ من الحرية التامّة، بِوَهم الاستقلال الذاتي والتفوُّق الخَلقي والثقافي. "إنَّ راحةً من هذا النوع تُؤلِّفُ أيضاً أساس الزُهد "الأكثر سُمواً" في اللاعقلانية، كما عند شوبنهاور وكيركوجارد Kierkegaard"[69].

هذه الراحة وهذا الإيمان بإمتلاك الحقيقة وَهْمَاً، يُمكننا تفسيرُ وجودهِ لدى المتشدِّدين بعامة سواءً أكانوا من العِلمانيين او الأُصوليين. أي يَجري ذلك على الصعيد الديني المتطرف وعلى الصعيد اللاديني المتطرف، لكون الأمر في المحصلة نتاجٌ من نتاجات التعصب في قراءة "الذات Self" وإدعاء التفوُّق والعُلوية، ناهيك عن إقصاء "الآخر" تماماً من دائرة التفكير السياسي والأخلاقي. بيد أنَّ ذلك يستلزمُ بيئةً مادية متأزمة للغاية، فكانت أزمة النظام الرأسمالي بمثابة هذه البيئة المؤاتية لولادة الفاشيات في أوروبا بعامة، كما أنَّ أزمة الدولة والهوية الألمانية وطبيعة المزاج والاحباط العام ساعدتْ بدورها كثيراً على بروز النازية بخاصة. وفي المقابل، حين عملت ألمانيا بعد العام 1918 على توسيع نطاق النظام الانتخابي ليصلَ الى عامة الناس بهدف احتواء مطالبهم السياسية ودمجهم في النظام السياسي، فإذا بالدولة نفسها تعجز عن التعامل مع أزماتها المركّبة والمُربكة للغاية: البطالة المُستفحِلة والتضخم الاقتصادي وديون الحرب وتقلبات أسعار العملات وأسواق المال. كلُّ ذلك جعل من وصول النازية الى سدة الحكم مجرد "نتيجة"، وهي متولِّدة عن أسباب أشَّدُ عُمقاً. ففي ألمانيا وايطاليا عجزت الدولة من ممارسة مهامها الرئيسية قبل وصول الفاشيين الى سدة الحكم في عامَي 1922 و1933. ولم تكن الاحزاب السياسية هي منْ أطاحت بالدولة الليبرالية، رغم أنَّ الانقسامات الحزبية والسياسية ساعدت كثيراً في تعميق واتساع أزماتها. لقد وصلت الدولة الى مرحلة متقدِّمة من الجمود المؤسسي ولم تعد قادرةً على معالجة مشكلاتها المستعصية. وهو ما استغلتهُ الفاشيات بعامة والى حدٍّ كبير للغاية، لِتطرح نفسها كبديل يَحوزُ استراتيجية شاملة ومعالجات جديدة. ويدفعنا ذلك الى طرح التساؤل التالي: كيف عمل الألمان على تجاوز هذه "الهاوية" والخروج منها؟ أو بعبارةٍ أُخرى كيف يتجاوز الألمان مشكلاتهم السياسية العميقة والمتشعبة؟

ثالثاً– كيفية مواجهة الفاشية الالمانية واجتثاثها

[69] جورج لوكاش، تحطيم العقل، ج1، مصدر سابق ، ص 24.

كانت قضية الهوية الالمانية بعد العام 1945 موضوعَ نقاشٍ وجدلٍ كبير في أوساط المثقفين الألمان، سيَّما بتأثير الحقبة النازية والابادة الجماعية لليهود. ووفقاً الى بيخو باريخ Bhikhu Parekh "كان الجرح غائراً جداً لدرجةٍ سَمَحَتْ للألمان بإثارة أسئلةٍ مزعجة فَورَ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكثيرٌ من الألمان الذين استطاعوا إثارة هذه الاسئلة إما أنَّهم استطاعوا تكييف أوضاعهم السياسية [في ضوء طبيعة المرحلة الجديدة]، أو أنَّهم كانوا مختلفين جداً لِدرجةٍ مكَّنَتهم من توجيهِ هذه الاسئلة". فقد تساءلَ الجيل الجديد عن ما فعلتهُ التنظيمات النازية بمجتمعهم، وعن ماهيّة تصورات النازية نفسها عن المجتمع الألماني، ولماذا إتَّبَعَ الألمان أولئك الساسة النازيين الذين استهدفوا اثارة وتهييج الشعب تجاه القوميات والشعوب الاخرى؟ كما تساءلَ الألمان ما اذا كان قاتلُ ستة ملايين يهودي "شخصاً فريداً" من نوعهِ تاريخياً، أم أنَّ هذا العمل شأنهُ شأن جرائم الابادة الجماعية الاخرى؟ واذا أماطت الحالة الاولى اللثام عن وجود قوى غامضة وشريرة تعتمل الشخصية الألمانية وموروثها الثقافي، وما اذا كانت الحالة الثانية يُمكنُ تفسيرها بناءاً على العوامل السياسية والشخصية، فإنَّ هذا التفسير لا يَمحو بَشَاعتها بأي حالٍ من الاحوال. ففي كِلا الحالَين سيبقى التساؤل الجوهري قائماً وهو: "كيف استطاع الألمان ارتكاب مثل هذه الجرائم؟ فهم لم يكونوا شرَّ البشر والأكثر إثماً مقارنةً مع أماكن أخرى، والأُمة الألمانية نفسها التي أنجبت هتلر أنجبت أيضاً كانت Kant وهردر Herder وجوته Goethe وغيرهم من كبار الفنانين والكتّاب الغربيين. فهل يمكن وصف جرائم الابادة الجماعية بالخلل والانحراف؟ وهل كان يوجد انفصام في الهوية والشخصية الألمانية، أم أن نَزَعاتِها الشريرة تُقابِلُ فحسب سِماتها النبيلة سواءً بسواء؟ كما يقودنا ذلك الى طرح سؤالٍ آخر أكثر أهميةً وهو: كيف يستطيع الألمان أنْ يصونوا أنفسهم عن مُعاودة ارتكاب مثل هذه الجرائم؟"[70].

في ضوء هذه الاسئلة والنقاشات العميقة حول ماهيّة الهوية وهاجس الدولة، كان الحل الأمثل أمام الالمان قد تجسَّدَ في خلق قطيعةٍ صريحة مع ماضيهم القريب، كما أعطوا أنفسهم هويةً سياسية مختلفة تتخِّذُ شكلَ مؤسساتٍ ديمقراطية ليبرالية بعد العام 1945 مباشرةً، كذلك جرى استبدال دراسة التاريخ بالدراسات الاجتماعية في المدارس الألمانية، ورافق ذلك محاولات منظمة ومنهجية لِغرس الثقافة الديمقراطية في الأذهان. ومن ثمَّ نشأ جيلٌ جديد في ستينيات القرن العشرين، تميَّز بالثقة العالية بالنفس والانفصال الذهني

[70] بيخو باريخ، سياسة جديدة للهوية: المبادئ السياسية لِعالمٍ يتسم بالاعتماد المتبادل، ترجمة حسن محمد فتحي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص 118- 119.

عن طريقة تفكير الآباء وذوي القُربى. فأمسى هذا الجيل بذاتهِ يعمل على "إثارة الاسئلة المزعجة عن الحقبة النازية ودور آبائهم فيها"[71]، أو بتساؤلٍ أكثر وضوحاً، كيف يُمكن اجتثاث الفاشية من أذهان الألمان؟

في هذا المَسار، يعتقد جورج لوكاش في ضوء مُعايشتهِ للبيئة السياسية والفكرية، بامكانية التخلص من الفاشية الالمانية عبر مشروعٍ فكري سياسي قائم على استخدام القوة واللّين في آنٍ واحد. بحيث أنَّهُ لا يُعارِضُ به النازية فحسب بل ويسعى الى إحلالهِ محَّلَ المشروع الليبرالي ايضاً. يُطلق لوكاش على مشروعهِ تسمية "الديمقراطية الثورية"، وهو يكادُ يَعني بها "الإشتراكية الثورية". ففي سياق التعريف بمشروعهِ الفكري يرى "أنَّ الديمقراطية الثورية لا تعني التعصب الأعمى إزاء السياسة الواقعية الذكية [أي الليبرالية التساومية]، وهي لا تعني ضرورة إختيار الحّل الأكثر راديكاليةً دائماً [أي الماركسية الأرثوذكسية] دون مراعاة الظروف الملموسة. إنَّ الهدف السياسي المباشر للديمقراطية الثورية هو الديمقراطية ولكن من طرازٍ جديد، كما يُسمّيها الشيوعي الإسباني دياز Diaz، هو التمثيل العَيني لِمصالح الشعب العَينية المشتركة في وضعٍ تاريخي ملموس". وذلك على إعتبارٍ مفادهُ أنَّ النظام الاجتماعي والسياسي الذي يَخدم مصالح الشعب لا يمكن أنْ ينشأ الا بواسطة الشعب نفسهِ، وبفعالية الجماهير، وبفعالية مشروع الديمقراطية الثورية نفسه[72].

ولكي يتِّمَ ذلك، لابدَّ من "**الثورة ضد الفاشية الالمانية ثم العمل على إزالة التُراث الليبرالي**". وبخصوص الشّق الأول لِمشروعهِ المُناهِض للنازية، **(أي الثورة ضد الفاشية الالمانية)**، نجده متّفقاً مع دُعاة مدرسة فرانكفورت بعامّة حول "أنَّ الاضطهاد الفاشي والبربرية الفاشية لا يمكن الإطاحة بها الإ حين يتكتّل كل الشعب الشّغيل في ألمانيا.... إنَّ الفاشية لا يتم الاطاحة بها عبر تبدلاتٍ "سياسية واقعية"، بل عبر ثورةٍ ديمقراطية يقوم بها الشعب الألماني نفسه". من ناحيةٍ أُخرى، نجد أنَّ السبب المركزي وراء دعوة لوكاش الى **(إزالة التُراث الليبرالي)**، يكمن في كونها تنظرُ الى التعبئة الثورية للجماهير من زاوية أنَّها "الخطر الأعظم ونهاية التقدّم والحضارة، وهو ما يُحتِّمُ على الليبرالية أنْ تذهب الى هؤلاء الشركاء [أي النازيين] لِتَستجدي مساوماتٍ من أولئك الذين لا يَميلون الى التفاوض معها أبداً"، أي الإشتراكيين[73]. بمعنى آخر وبحسب قراءة جورج كتورة، أنَّ الاتفاق بين لوكاش ومدرسة فرانكفورت، وبخاصة نقدهما المشترك لصناعة الثقافة النازية، إنما يَتجسَّدُ في نقد التفكير الذي سرى إبّان الحكم النازي، ونقد وصول النازية الى الحكم بالانتخابات وليس عبر الانقلاب، وسَيرِ الألمان وراءهُ طائعين وغير مُلزمين، بحيث (اعتَبَروا هتلر مُخلِصاً بشكلٍ ما. ولما كانوا

---

[71] بيخو باريخ، سياسة جديدة للهوية: المبادئ السياسية لِعالمٍ يتسم بالاعتماد المتبادل، مصدر سابق، ص 118.

[72] جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق، ص ص 96، 115.

[73] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 96-101.

يَطْبَعون العملة الالمانية على جانبٍ واحد من العملة، لأنَّ العملة نفسها لم تعد تستحق حتى ثمن طباعتها، قال لهم هتلر: لا، هناك عمل واعملوا... فوجدَ الألمان أنفسهم مَجْرورينَ مع هتلر الى الحرب العالمية). ومن ثمَّ، ما يَنتقِدهُ الفرانكفورتيون بشدة هو انغماس الألمان في دائرة العقلانية الأداتية، أي قبولهم بصناعة ثقافة الخضوع وعبر استعمال النازية للعقلانية نفسها أداةً من أجل السيطرة والهيمنة الشاملة، وبالتالي تعميق هذه الثقافة ونشرها عبر التكنلوجيا ووسائل الاعلام المقروءة والمسموعة[74]. وبهدف التخلص من هذا الواقع واجتثاثه، يدعو لوكاش بخاصة الى مشروع الديمقراطية الثورية لكي تُحدِثَ التغيير على أوسعِ نطاقٍ ممكن، بحيث ينبغي أنْ تَستخدِم الى جانب القوّة المادية سُبُلَ تغييرٍ أُخرى سلمية بخاصة وهي الآتية:

1. ينبغي العمل على إعادةِ قراءةِ التاريخ الالماني قراءةً واقعية ونقدية بعيدة عن الميول الذاتية. إذ يقول لوكاش: "مثلما أنا مقتنعٌ بوجود الترابط بين النزعة الواقعية والطابع الشعبي ومعاداة الفاشية إقتناعاً عميقاً، كذلك أنا على يقين بأنَّ إكتشافنا للماضي الديمقراطي للثقافة الألمانية ليس طريقاً الى الرجعية، بل إنَّهُ طريقٌ الى المستقبل ومساعدةٌ أيديولوجية لِتحرير ألمانيا". لذلك، ينبغي تغيير تلك الرؤية المتخّلفة والقائلة بمعاداة اليهود وكل ما هو غربي، كالديمقراطية والانتخابات والحريات، على إعتبار أنَّها لا تتفق مع الروح الحقيقية للشعب الالماني. "إنَّ من أهّم واجبات أدبِ الحركة المُناهِضة للفاشية تحطيم هذه الخرافة التاريخية، وأنْ يُبيِّنَ كيف يَنبثق الكفاح لأجل الديمقراطية من حياة الشعب الألماني بصورةٍ عضوية"[75]. وفي ظل تأثيرات هذا المنظور الداعي الى إعادة قراءة وفَهم الماضي، إجْتَرَحَ الالمان مصطلح "التغلب على الماضي Vergenganheit Bewaltigung"، وذلك في إشارةٍ الى "إعادة ترتيب الماضي بطريقةٍ تجعل ذكرياتهُ وموروثهُ تكفُّ عن كونها تُشكِّلُ عبئاً على الحاضر". وبالتالي إعادة توظيف "الروح الالمانية" على النحو الذي يُساعدهم للسيطرة على ماضيهم من أجل صناعة المستقبل. وفي هذا الاطار تحديداً، أي تجاوز الماضي والتغلب عليهِ، وقَّعتْ ألمانيا الغربية مع اسرائيل عام 1952 على إتفاقية ثنائية إستناداً الى مبدأ التعويض واصلاح ذات البَين. أي "وضِعَتْ هذه الاتفاقية في سياق ما يُمكن تسميتهُ بـ"السيطرة على الماضي والتحكّم به، أو العودة الى الماضي بأثرٍ رجعي". ولكي يُصبِحَ الحديث عن السيطرة على الماضي من جملة الموضوعات العلنية، وذلك بمعنى (أنَّهُ نحن لا ندفع التعويضات لإسرائيل بسبب هزيمتنا في الحرب، بل نحن ندفعها لأننا نُريدُ أنْ نُبرِّئ ماضينا بُغية التخلَّص منه)، لكي لا يعودَ ماضياً ضاغطاً على طريقة الحياة والتفكير. وبذلك تركَّز الخطاب العام لمرحلة ما بعد النازية على وجوب إعادة قراءة الماضي وفَهم التاريخ

---

[74] للمزيد من التفاصيل أنظر جورج كتورة، الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم، مصدر سابق، ص ص 59– 60.

[75] للمزيد من التفاصيل أنظر جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق، ص ص 104، 200.

الخاص، ومن زاوية أنَّه لإصلاحَ أمرٍ ما يتوجَّبُ تحقيق هذه السيطرة بادئ ذي بدء[76]. ولعلَّ ما ساعدَ الألمان الى حدٍّ ما، كون الايديولوجية الفاشية بعامة والنازية منها بخاصة على عكس الأُصولية الاسلامية والمذاهب الأُخرى ليست ايديولوجيةً قابلة للتصدير. فكل حركة فاشية وفقاً الى باكستون كانت "تحمي بحرص وصفتها الخاصة للإنبعاث القومي"، ناهيك عن اعتقاد هتلر نفسه بأنَّ "الوصفة النازية" هي بمثابة معاهدة خاصة بين الشعب الألماني وبين التاريخ بهدف تحقيق وحدتهِ وقوتهِ الطبيعية[77]. ولو كانت النازية أيديولوجية قابلة للتصدير على غِرار ثورة ايران الاسلامية عام 1979 مثلاً، فحينئذٍ كان يتوجَّب على الألمان بذل جهود كبيرة للغاية مادية ومعنوية على الصعيدَين الداخلي والخارجي، وعبر نقل معالجاتهم الخاصة الى الدول الأوروبية الأخرى بقصد اجتثاث النازية في ألمانيا وخارجها سواءً بسواء، وليس الاكتفاء بمجرّد التعويض المادي للمتضرِّرين واعادة برمجة أولويات الحياة وطريقة التفكير.

2. إنَّ الديمقراطية الثورية لدى لوكاش تعني "نقد الذات" أو (الروح الألمانية) ليس من خلال القراءة النقدية للتاريخ فحسب، بل يشمل ذلك أيضاً فكرة كون هذه الديمقراطية تعني معرفة واضحة للذات ونقداً ذاتياً صريحاً: "إذ أنَّ المرء يستطيع أنْ يتقدَّم حين يَعلمُ أين يقف الآن، وكم قَطَعَ من المسافة حتى الآن". وهنا يأتي دور المثقفين العضويين تحديداً في تبيان أهداف الثورة لِعامّة الناس بُغية توعيتهم بأهميتها لِحياتهم الآنية والمستقبلية، ومن ثمَّ قيادتهم نحو تحقيق أهدافهم. فَنضال الديمقراطية الثورية من أجل إزالة التراث الليبرالي لا يعني أنَّ هذه الديمقراطية مشروعٌ راديكالي متطرف، بل يعني أنَّها "تتضمن معرفة الطريق التي تُبيِّنُ كيف يمكن أنْ يُصبح المثقّفون، أنْ يُصبح الأدب، مرةً ثانية ممثِّلاً لِحياة الجماهير، وكيف يستطيع أنْ يلعبَ دوراً تثقيفياً وقيادياً في حياة الشعب"[78]. ويبدو أنَّ مثل هذا التركيز على الأدب والفن الناقد للحرب

---

[76] تعرضت هذه الجهود الرسمية الى النقد الحاد من قبل عدة اتجاهات معارضة والتي ضمَّت الكثير من الكتَّاب والفنانين، بحيث عُرِفتْ جميعاً بإسم (جماعة 47)، وذلك إنسجاماً مع موقف مجلة دير روف (Der Ruf) التي مُنِعَت من الصدور عام 1947. فقد تم التركّيز على فكرة عدالة المُنتَصِر، وأنَّ جرائم النازية هي جرائم "الآخرين من الألمان" وليس الاجيال الحالية. للمزيد من التفاصيل أنظر جورج كتورة، الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم، مصدر سابق، ص ص 3-4، 5-6، 42-44.

[77] وكذلك يُلاحظ أنَّ هتلر لم يُعوِّل كثيراً على دعم الحركات الفاشية في الدول التي احتلَّها مثل: فرنسا ويوغسلافيا وهنغاريا وبلجيكا. ذلك لأنَّ هتلر وخلافاً لِما يُشاع بشأنهِ كان براغماتياً للغاية. فقد اعتقد بكون فائدة الاحزاب الفاشية المحلية (عدا ايطاليا) ستكون أقل نفعاً بالنسبة الى مشروعهِ التوسعي، وذلك مقارنةً بالفائدة المرجوة من بقاء المُحتلّين الاوروبيين يُؤدون واجب الطاعة والاذعان للحكومة النازية أو بواسطة المحافظين من أبناء جلدتهم. للمزيد من التفاصيل أنظر روبرت أُون باكستون، تشريح الفاشية، مصدر سابق، ص ص45، 128- 140.

[78] جورج لوكاش، دراسات في الواقعية، مصدر سابق، ص ص 115-116.

والفاشية بعامة قد إتسع على نطاقٍ مجتمعي كبير، بحيث شمل مفكرين آخرين من أمثال غونتر غراس ورواياتهِ، وأرنست بلوخ والمدرسيين والأكاديميين في ألمانيا الشرقية، الذين أبدوا كذلك رفضهم للتعليب الفكري والأيديولوجي ما بعد النازية، بل أنَّ بعضهم فَقَدَ وظيفتهُ جرّاء جرأتهِ ومنهجه النقدي، كما أنَّ مدرسة فرانكفورت لم تزلْ تُجدِّدُ أدبياتها النقدية حتى اللحظة، وآخر ممثليها كل من أولريش بيك وأكسل هونيت وغيرهم مِمَنْ يعمدون للتركيز على الأُسس الفلسفية والقانونية والادارية التي آلتْ اليها الدولة الالمانية الحديثة، مثل البحث في فلسفة الاعتراف بأخطاء الذات تجاه (الأنا) و(الآخر)، كذلك البحث في العلاقة المُثلى بين الدولة والمواطن في مرحلة ما بعد التنوير الاوروبي ومن زاوية نقد التنوير نفسهِ. نتيجةً لكلِّ ذلك، تيسَّر السبيل أمام الألمان للإنتقال من مفهوم الجماعة Comunity الى مفهوم المجتمع Society ، أي الى التماسك الداخلي كمجتمع وكدولة. ففي مرحلة ما قبل ماكس فيبر، أي بحدود العام 1800، كان التفكير الألماني يغلب عليهِ الطابع الجماعاتي، بحيث جرى التركيز على مفهوم التضامن الجماعاتي، ولكن عقب ذلك صار التفكير يصب في بناء المجتمع وبناء الدولة. وهذا المجتمع نفسهُ تمَّ بناء لُحْمَتهِ عبر الدولة الحديثة والدستور الاتحادي والقوانين فضلاً على إطاعة القوانين[79]. وهو ما أكَّده جورج كتورة في قراءتهِ لِكتاب (الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم) لِمؤلفَيهِ تيا دورن Thea Dorn وريتشارد فاغنر Richard Wagner، وذلك بالقول: "أنَّ الروح عند الألمان تتكشَّفُ في الأزمات، وهذا الكِتاب يُعيدنا باستمرار الى المراحل المتلاحقة من الأزمات التي عاشها الشعب الألماني، فقد عاشَها دون أنْ يفقِدَ "روحهُ"، فالروح الحيّة تستمر والأزمات تمضي... هذه الروح التي اجتازت كل الأزمات وحاولتْ التنقل من فلسفةٍ الى أُخرى، من المثالية الى الواقعية، الى الاشتراكية، ولكنّها ظلّت دائماً الروح الباحثة عن حلٍّ تتجاوز بهِ أزمتها ومشكلاتها لكي تحيا وتستمر وتُنتِج. ذلك الانتاج الذي يتجلّى في الفكر، وفي الصناعة، وفي القانون والموسيقى والفنون"[80].

ومثل هذا المنظور يُسلِّط حُزَماً من الضوء على معنى الثورة لدى لوكاش. فالثورة تعني لديهِ تحرير العقل والروح في المقام الأول، أي عقل الثوّار بعامة من سلطة الدولة والإنتماء اليها، ثم قيام المثقفين الثوّار ببناء هوية جديدة تجمع بعضهم بالبعض الآخر من أجل مواجهة الدولة المُستبِّدة إيديولوجياً وهوياتياً. وبالتالي، يعمل المثقفون الثوّار رويداً رويداً على تحرير كل فردٍ في المجتمع من سيطرة وإرادة النظام السياسي والإقتصادي، حتى يغدو كل فرد حرّاً ومستقلاً بذاتهِ، بحيث إذا ما إنتهجَ نهجاً سياسياً آخر أو خضعَ لنظامٍ

[79] جورج كتورة، الروح الألمانية: تجاوز الماضي الأليم، مصدر سابق، ص ص 23– 24.

[80] للمزيد من التفاصيل أنظر المصدر نفسه، ص ص 49–52.

إقتصادي وسياسي بعينهِ، فإنَّ ذلك يجب أنْ يتِّمَ بِمَحضِ إرادتهِ. وهنا ينبغي الإشارة الى فكرةٍ ضمنية، لربّما غفل عنها لوكاش وفقاً الى كاتب السطور، وهي أنَّ عملية الثَوَران في اوساط المثقفين وعامَة المحرومين تخلق بيئةً فكرية–عاطفية مشتركة يشعر فيها الثوّار والرافضون للنظام بالتجانس الفكري والقيَمي والإلُفة تجاه بعضهم البعض، وعلى النحو الذي يُساعدُ بالضرورة في نشر الإعتقاد وتعميق الإيمان بأفكار الثورة وطروحات تغيير الواقع على أوسع نطاقٍ مجتمعي ممكن، ومن ثمَّ الدفع بالثوّار والرافضين أنفسهم الى بذل المزيد من الجهود والتضحيات مهما كانت التكاليف والتبعات، بغية نجاح الثورة ودوامها على الصعيدَين المادي والفكري فضلاً عن إنتشارها بمختلف السبل في أوساط المجتمع ومكوِّناتهِ.

ولعلَّ السببَ الجوهري وراء ذلك يرجع الى كون البُعد الفكري للثورة اللوكاشية يكون في حالة إرتباطٍ متوَّترٍ بقضية مصير الثورة ومستقبلها وآثارها السياسية والإجتماعية، أي العلاقة بين شرعية الثورة ومصداقيتها وبين قدرتها على ممارسة السلطة لاحقاً. إذ يمكن القول بكون نجاح الثورة من عدمهِ يتوقف الى حدٍّ بعيد على إستمرارية القبول الشعبي بأفكارها وغاياتها. وفي الوقت ذاتهِ يتوقف إتساع دائرة القبول والرِضا الشعبي على مدى المقدرة الثورية للثوّار في تحويل أفكارهم الى واقعٍ ملموس، أي مصداقيتهم في تحويل دائرة (ما يجب أنْ يكون) لديهم الى التطابق مع دائرة (ما هو كائِن). فالعلاقة هنا بين الشرعية والمصداقية هي أشبه بالعلاقة بين رضا الناس عن أفعالِ المرء وبين أقوالهِ. فالرِضا الشعبي يكون في إزدياد كلّما تمكن الفرد/المثقف الثائر من تحويل أفكارهِ الى أفعال وسلوك متطابق الى حدٍّ ما مع تلك الافكار. والعكس صحيح أيضاً، أي إذا ما فشل الفرد/ المثقف الثوري في تحويل منظورهِ الفكري وشعاراتهِ الى واقعٍ ملموس فإنَّ ذلك سيقود تدريجياً الى تناقص الرضا الشعبي، ومن ثمَّ فشل الثورة ومشروعها التغييري في نهاية المطاف.

على أيِّ حال، إنَّ اعتقادَ لوكاش بأهمية دور العقلانية في مواجهة اللاعقلانية، أي دور الاشتراكية في مواجهة النازية وضرورة التخلص منها، ثم الأخذ بمبدأ نقد الذات ومعرفة الذات لِتكونَ جزءاً رئيسَاً من دور المثقفين في الحياة الانسانية، سواءً على صعيد التثقيف والتوعية المجتمعية أو على صعيد القيادة السياسية والفكرية للدولة، هذا الاعتقاد يَكشِفُ عن مساعي لوكاش الفكرية في إصلاح مسار عملية بناء الدولة الالمانية ومؤسساتها من زاوية النظرية الاشتراكية. بيد أنَّها إشتراكية أوروبية تأخذ بالحُسبان الظروف السياسية والإجتماعية لكل دولة على حدة، وهي في الوقت نفسهِ إشتراكية إصلاحية، بمعنى أنّها تحاول إصلاح الماركسية–اللينينية نفسها من زاوية تطعيمها بالديمقراطية وحرية التفكير والنقد الذاتي بما يخدم المشروع الإشتراكي في خاتمة المسار. وربَّما أنَّ هذه الرؤى اللوكاشية بعامة هي التي أسهمت في تشكيل النواة الاولى للمشروع الفرانكفورتي المتمثِّل في النظرية النقدية

الخاتمة

نَستخلِصُ مما تقدَّم تحليلهُ، أنَّ لوكاش أوجدَ وعلى نحوٍ غير مسبوق علاقةً وثيقة بين جمود مؤسسات الدولة وبين بروز النازية، وربّما يشمل ذلك حتى الأصولية الدينية باعتبارها من أشكال الفاشية بالمعنى الواسع للمصطلح. كذلك أوجد العلاقة بين ضعف اليسار الاشتراكي وبرنامجه الفكري بعامة وبين إحتمالية بروز ظاهرة التطرف العرقي والطائفي ومن ثمَّ استيلائها البراغماتي على السلطة. بمعنى أنَّ إخفاق مؤسسات الدولة في إنجاز وظائفها الجوهرية أو غالبيتها ومنها بخاصة: الأمن، العدالة، تأمين الحريات العامة، سيقود الى توليد وضعية القابلية الذاتية للتطرّف، ثم رسوخهِ مجتمعياً، ليغدو هذا التطرّف بذاتهِ سبيلاً مأساوياً لمعالجة ذلك الاخفاق المؤسساتي لأداء الدولة ووظائفها. بحيث يتم تعظيم "الذات/الأمة" على حساب الأمم والإثنيات الأخرى بوصفها أقل شأناً ومنزلة. وكلّما كان نطاق عجز مؤسسات الدولة كبيراً كلما كان التطرّف واسعاً، بحيث سيغدو برنامج التطرف نفسهُ قائماً على أفكار سطحية وبسيطة وكأنَّها من المسلّمات الفكرية، ثم يُرافق ذلك احياناً الإنجازات المادية والتكنلوجية لاسيما العسكرية منها، بغية توليد الإيمان بمضامين التطرّف في أوساط عامّة الناس على النحو الذي يَدفعهم لإسباغِ صفة العقلانية على المضامين العنصرية غير العقلانية، حتى تبدو وكأنَّها من قبيل الثوابت الطبيعية. وبذلك يتم تمهيد السبيل لإستسهال اللجوء الى وسائل العنف والتنكيل بـ"الآخر" وبغض النظر عن التفاوتات الدينية والإثنية. من جانبٍ آخر، يُحاول لوكاش بناءَ علاقة جديدة بين مشروع الدولة الإشتراكية وبين الوعي الطبقي، من حيث التشديد على أهمية الوعي الطبقي بوصفهِ قوة فعّالة مُحرِّكة للبروليتاريا والمهّمشين في صراعهم الطبقي ضد هيمنة البرجوازية. بحيث يجري هنا أيضاً اللجوء للسبيل الثوري، ولكنه هذه المرة من أجل بناء الدولة الإشتراكية القائمة على أساس المساواة وإحترام الحقوق والحريات الأساسية، وليس على أساس إستعباد "الآخر" والتنكيل بهِ. هذه الإشتراكية من المنظور اللوكاشي هي إشتراكية أوروبية غير سوفيتية، بمعنى أنَّها تأخذ بنظر الإعتبار طبيعة البيئة الإجتماعية والثقافية الأوروبية، والبيئة الألمانية بخاصة من حيث الثقافة المجتمعية والمتصلة بمفهوم "العمل" و"الروح الألمانية"، فهي تُشكِّل قوة الدفع الذاتية للألمان للتفوق على أنفسهم وتجاوز "الهاوية" الذاتية في المقام الأول، ثم التغلب على ماضيهم ومركزية موروثهم الثقافي، أي التغلب على المعتقدات النازية والمآسي التي ارتكبوها في حقِّ الألمان والشعوب الأخرى. وكذلك من خلال إعادة قراءة النصوص الماركسية وتكييفها مع هذه البيئة بعيداً عن الماركسية–اللينينية وهيمنتها الايديولوجية.